# مجلة (نوافذ الحكمة)

## العدد 10/ تاريخ الصين

**مجلة دورية تصدر أسبوعيًا**

**تابعة لمكتبة نوافذ الحكمة**

**شعار المكتبة التي قامت بإعداد المجلة**



**تاريخ نشر هذه الدورية من المجلة: 3/أبريل/2026**

**للتواصل مع القائم على المكتبة: zaidadwan@gmail.com (زيد العدوان)**

## كلمة المحرر:

لا أريد أن أطيل في الكلام، فالإطالة ليست من طبعي، لكني لما رأيت الكتب الكثيرة المسجاة في مواقع الانترنت، ارتأيت أن أنشأ مجلة في مختلف مجالات العلوم، لكي ترفد القارىء العربي بعلوم جديدة ومختلفة عن المألوف، فتكون مفيدة له.

وتتخلص هذه المجلة حول علوم مختلفة، منها على سبيل المثال لا الحصر القانون، التاريخ، الفلسفة الحديثة والقديمة، بالإضافة إلى الروحيات (occult).

كما تدور هذه المكتبة حول الترجمة، والتأليف، والتخليص، والشرح، فأحيانًا تكون هنالك مقالات مشروحة، وأحيانًا مقالات مترجمة، وأحيانًا مقالات تم تأليفها.

ومن الجدير بالذكر، أن المجلة هذه قائمة 100% على الذكاء الاصطناعي، فاليوم أمسى الذكاء الاصطناعي أداة هائلة من الممكن استغلالها في الترجمة، التأليف، الشرح...الخ من الأنشطة الكتابية، ولم يعد هنالك حاجة للقيام بالأعمال الكتابية الصغيرة التي أصبح الذكاء الاصطناعي يختصر الجهد والوقت علينا فيها.

كما أن المجلة تقوم على 70 صفحة، وهي تصدر أسبوعيًا، بمعدل 280 صفحة شهريًا.

هذا وعلى الله توكلنا فبه التوفيق والمضي.

القائم على هذه المجلة الدورية

زيد العدوان

# الفصل الأول

يهدف علم اللاهوت المقارن إلى إنصاف جميع المذاهب الدينية للبشرية. فهو يتبنى موقف القاضي لا المدافع. وانطلاقًا من افتراض الرسول بولس أن كل دين قد جاء بتدبير إلهي، كوسيلة تسعى بها مختلف الأجناس إلى "التقرب إلى الرب، لعلهم يجدونه"، فإنه يسعى إلى بيان كيف يمكن لكل دين أن يكون خطوة في مسيرة التقدم الديني لهذه الأجناس، و"معلمًا يقود الناس إلى المسيح". إلا أنه ملزم بالامتناع عن مثل هذه الاستنتاجات حتى يتأكد من جميع الحقائق بدقة. وتتمثل مهمته الأولى في معرفة محتوى كل نظام ديني؛ وبعد ذلك يمكنه المضي قدمًا، ومحاولة التعميم انطلاقًا من حقائقه.

لذا، فإن علم اللاهوت المقارن لا يزال في بداياته. إنّ الاتجاه نفسه الذي ظهر في هذا القرن، والذي أفرز علوم التشريح المقارن والجغرافيا المقارنة وفقه اللغة المقارن، يُنشئ الآن علمًا جديدًا هو اللاهوت المقارن <sup>1</sup>.وسيكون هذا العلم بالنسبة لأي فرع من فروع اللاهوت كما هو التشريح المقارن بالنسبة لأي فرع من فروع التشريح، والجغرافيا المقارنة بالنسبة لأي فرع من فروع الجغرافيا، وفقه اللغة المقارنة بالنسبة لدراسة أي لغة معينة.
ويمكن تسميته علمًا، لأنه يقوم على دراسة وقائع التاريخ البشري وعلاقاتها المتبادلة. وهو لا يُصدر أحكامًا قاطعة، بل يُلاحظ. وهو لا يتعامل إلا مع الظواهر، سواء أكانت ظواهر منفردة أو وقائع، أم ظواهر مُجمّعة أو قوانين.

وقد ظهرت مؤخرًا في ألمانيا وفرنسا وإنجلترا عدة أعمال قيّمة، تتناول اللاهوت المقارن بشكل مباشر أو غير مباشر. من بين هؤلاء، يمكن ذكر مؤلفات ماكس مولر، وبونسن، وبورنوف، ودولينجر، وهاردويك، وسانت هيلير، ودونكر، وإف. سي. باور، ورينان، وكروزر، وموريس، وجي. دبليو. كوكس، وغيرهم.

في أمريكا، باستثناء دراسة السيد ألجر القيّمة حول "مذهب الحياة الآخرة"، لا نملك إلا القليل مما يستحق الذكر. ويستحق كتاب السيدة ليديا ماريا تشايلد عن "تطور الأفكار الدينية" التقدير

الأكبر، إذا ما أخذنا في الاعتبار الفترة الزمنية التي كُتب فيها وقلة مصادر المعلومات المتاحة آنذاك <sup>2</sup>.قبل خمسة وعشرين عامًا، كان من الصعب الحصول على أي معلومات كافية حول البراهمية، أو البوذية، أو ديانات كونفوشيوس، وزرادشت، ومحمد. ولم يكن قد تُرجم أي جزء تقريبًا من الفيدا إلى لغة أوروبية. وكانت مؤلفات أنكيتيل دو بيرون وكلوكر لا تزال المرجع الأعلى في الزندافيستا. لم يكن يُعرف الكثير عن البوذيين. أما الآن، ورغم وجود ثغرات مهمة لا تزال بحاجة إلى سدّها، فقد بات لدينا وسائل وافرة للتحقق من الحقائق الأساسية المتعلقة بمعظم هذه التحولات في النفس البشرية. ويبدو أن الوقت قد حان لإنجاز شيء قد يكون له قيمة دائمة.

**الفقرة 3: الأديان العرقية. الظلم الذي غالبًا ما يلحق بها من قِبل المدافعين عن المسيحية.**

إن علم اللاهوت المقارن، الذي يسلك مساره المحايد كعلمٍ قائم على الوضع، سيتجنب الخطأ الذي وقع فيه معظم المدافعين عن المسيحية في القرن الماضي، عند حديثهم عن الأديان العرقية أو الوثنية. فلكي يُظهروا الحاجة إلى المسيحية، رأوا ضرورةً للتقليل من شأن جميع الأديان الأخرى. وبناءً على ذلك، أصرّوا على أنه بينما كانت الديانتان اليهودية والمسيحية مُنزلتين، فإن جميع الأديان الأخرى مُخترعة؛ وأن هذه من عند الله، وأن تلك من صنع الإنسان؛ وأنه بينما لا يوجد باطل في الأديان الحقة، فلا يوجد حق في الأديان الباطلة. إن وُجدت أيُّ ذرةٍ من الحقيقة في الوثنية، فقد كانت ممزوجةً بالضلال لدرجة أنها لم تكن سوى شرٍّ محض. فكما كانت عقائد الديانات الوثنية فاسدة، كانت عبادتها مجرد خرافةٍ مُهينة. كان تأثيرها يُسيء إلى الناس لا يُحسنهم؛ وكان ميلها إلى إنتاج الشهوانية والقسوة والانحطاط الشامل. لم تكن هذه الديانات، بأيّ معنىً من المعاني، نابعةً من الله؛ بل لم تكن حتى من صنع الأخيار، وإنما من فرضٍ مُتعمَّدٍ وتدبيرٍ كهنوتي. لقد أصبح الدين الخارق للطبيعة ضروريًا لمواجهة العواقب الوخيمة لهذه الخرافات المنحطة والمُهينة. هذه هي النظرة إلى الديانات الطبيعية الكبرى في العالم التي تبناها كُتّابٌ مثل ليلاند وويتبي وواربورتون في القرن الماضي. حتى المفكرون الليبراليون، مثل جيمس فوستر وجون لوك، يُصرِّحون بأن البشرية،

عند مجيء المسيح، كانت قد سقطت في ظلامٍ دامس، وأن الرذيلة والخرافات قد ملأت العالم. وقد تبنّى الكُتّاب الكفار، كما المسيحيون، النظرة المُحتقرة نفسها للديانات الطبيعية. اعتبروها، في منشأها، عملاً من أعمال الاحتيال؛ وفي جوهرها، خرافات فاسدة؛ وفي مذاهبها، باطلة تماماً؛ وفي توجهها الأخلاقي، ضارة للغاية؛ وفي نتيجتها، تنحدر أكثر فأكثر إلى شر أعظم.

حاول بعض الكتّاب، مثل كودوورث والأفلاطونيين، الدفاع عن الفلاسفة اليونانيين، لكن أديان العالم وُضعت في مواجهة استنكار لا هوادة فيه. ويستحق الوصف الذي قدمه كاتب صريح مثل موشيم عنهم الانتباه، نظراً لشموليته. "جميع أمم العالم"،

يقول: "باستثناء اليهود، كانوا غارقين في أشد الخرافات فجاجة. بل إن بعض الأمم تجاوزت غيرها في الكفر والعبث، لكن جميعها اتُهمت باللاعقلانية والغباء الفاحش في مسائل الدين." "كان معظم آلهة جميع الأمم أبطالًا قدماء، اشتهروا بإنجازاتهم وأعمالهم الجليلة، مثل الملوك والقادة ومؤسسي المدن." "إلى هؤلاء أضاف البعض أشياءً أكثر روعة وفائدة في العالم الطبيعي، كالشمس والقمر والنجوم؛ ولم يخجل البعض من تقديم التكريم الإلهي للجبال والأنهار والأشجار، إلخ." "كانت عبادة هذه الآلهة تتألف من طقوس وقرابين وصلوات. وكانت الطقوس، في معظمها، سخيفة ومضحكة، ومهينة وفاحشة وقاسية. أما الصلوات فكانت باهتة وخالية من التقوى، شكلاً ومضموناً." "أساء الكهنة الذين ترأسوا هذه العبادة استخدام سلطتهم بشكل دنيء لفرض معتقداتهم على الناس." لم يكن للنظام الوثني برمته أدنى قدرة على غرس المشاعر الحميدة في النفس وتنميتها، لأن الآلهة كانت نماذج للرذيلة، والكهنة أشرارًا، والعقائد باطلة<sup>5</sup>.

ربما تكون هذه النظرة إلى الديانات الوثنية مبالغًا فيها. لا بد أنها تحوي من الحق أكثر مما تحوي من الباطل، ولا بد أنها كانت، في مجملها، نافعة للبشرية. لا نعتقد أنها نشأت من خداع البشر، أو أن جوهرها خرافة، أو أن الباطل فيها يفوق الحق، أو أن نزعتها الأخلاقية ضارة في الغالب، أو أنها تنحدر باستمرار إلى شر أعظم. لا شك أنه يمكن وصف هذه الأنظمة

جميعها بأنها تحوي الكثير مما هو باطل وضار بالفضيلة الإنسانية. لكن الاعتبارات التالية قد تُظهر أن جميع ديانات الأرض هي من تدبير العناية الإلهية، وأنها جميعًا تصب في مصلحة البشرية.

إن عزو الظواهر الدينية الهائلة، بتنوعها وتعقيدها، إلى الإنسان باعتباره مُنشئها، والافتراض بأنها مجرد خدعة بشرية، ليس حلاً مُرضياً للحقائق التي أمامنا. فكيف استطاع رجال الدين، مستغلين جهل الناس أو خوفهم، أن يُكوّنوا هذا الكم الهائل من المعتقدات والمشاعر والأفعال، يُشبه نظرية الكون الهندوسية التي تفترض أن الكرة الأرضية تستقر على فيل، والفيل على سلحفاة، والسلحفاة على لا شيء؟

إذا كان الناس بهذا القدر من الجهل، فكيف أصبح رجال الدين بهذه الحكمة؟ وإذا كان الناس بهذه السذاجة، فلماذا لم يكن رجال الدين كذلك؟ "كما الناس، كذلك رجال الدين"، مثلٌ أثبتت التجربة صحته. بين كل هذه الأمم وعبر كل هذه القرون، لماذا لم يكشف أي رجل دين سر هذه الخدعة الشهيرة؟ لو طبقنا نظرية مماثلة على أي مؤسسة بشرية أخرى، لوجدنا مدى سخافتها! لنفترض أن جمهوريًا ما يزعم أن جميع أشكال الحكم الأخرى - النظام الأبوي، والحكم الطبقي، والنظام الإقطاعي، والملكيات المطلقة والمحدودة، والأوليغارشية، والأرستقراطية - عديمة الجدوى وشريرة تمامًا، وأنها نتاج حكر على السياسة، لا أساس لها في الطبيعة البشرية أو احتياجات الإنسان. ولنفترض أن كل نظام قانوني (باستثناء نظامنا) هو من اختراع المحامين لأغراض خاصة. ولنفترض أن الطب يُجادل بنفس الطريقة، ويقول إنه نظام دجل محض، ابتكره الأطباء للحصول على دعم الشعب مقابل لا شيء. عندها سنرد فورًا بأنه على الرغم من أن الخطأ والجهل قد يلعبان دورًا في كل هذه المؤسسات، إلا أنها لا يمكن أن تُبنى على الخطأ والجهل فقط. لا شيء يخلو من بعض عناصر النفع يمكنه أن يحافظ على مكانته في العالم لفترة طويلة وعلى نطاق واسع. ومن المنطقي أن نقول الشيء نفسه عن الديانات الوثنية أو العرقية. فهي تحتوي، بلا شك، على الخطأ والشر. لا شك أن تأثير الكهنوت قد بلغ حداً كبيراً في هذه الأديان، وإن لم يتجاوز ربما ما بلغه في المسيحية أحياناً.

ولكن ما لم يكن فيها من الخير أكثر من الشر، لما استطاعت الحفاظ على مكانتها. لقد أشبعت جزئياً جوعاً عظيماً في قلب الإنسان، وكبحت جماح نزعاته وعواطفه، ووجهت، وإن كان ذلك بشكل غير كامل، الضمير البشري نحو الحق. إن افتراض أنها شر محض هو استخفاف بالطبيعة البشرية، إذ يفترض أن الإنسان فريسة سهلة للخداع. لكن هذه الأديان لا تقوم على أساس واهٍ كهذا، بل على الشعور بالتبعية، والإحساس بالمسؤولية، والاعتراف بحقائق روحية قريبة جداً من هذا العالم المادي، والحاجة إلى التضرع إلى قوة خفية أسمى وأفضل منا وعبادتها. إن احترامنا لآراء البشرية يمنعنا من أن ننسب الأديان الوثنية إلى الكهنوت كمصدر رئيسي لها.

ويقودنا تقوى العناية الإلهية إلى النتيجة نفسها. هل يعقل أن الله قد ترك نفسه بلا شاهد في العالم، إلا بين العبرانيين في العصور القديمة والمسيحيين في العصر الحديث؟ هذه العقيدة الضيقة تستبعد الله من أي تواصل مع الغالبية العظمى من البشر.

يُصوَّر أبو البشرية وكأنه يختار قلة من أبنائه ليُبقيهم قريبين منه، ويترك الباقين ليهلكوا في جهلهم وضلالهم. وليس هذا لأنهم أبناء ضالون انحرفوا إلى بلاد بعيدة بمحض إرادتهم، بل هم حيث وضعهم خالقهم. هو "قد حدد أوقاتهم وحدود مساكنهم". لقد خلق بعضهم في الهند، حيث لا يسمعون عنه إلا من خلال البراهمية، وبعضهم في الصين، حيث لا يعرفونه إلا من خلال بوذا وكونفوشيوس. العقيدة التي نعارضها هي: أنهم، بوضعهم هناك من قِبَل الله، يولدون في ضلال لا أمل فيه، ثم يُعاقبون على ضلالهم بالهلاك الأبدي. العقيدة التي ندافع عنها هي عقيدة الرسول بولس، أن الله "قد حدد مسبقًا حدود مساكنهم، لكي يطلبوا الرب، لعلهم يجدونه". يعلّم بولس أن "جميع الأمم الساكنة على وجه الأرض" لا يمكنها فقط أن تسعى إلى الله وتشعر به، بل أن تجده أيضًا. ولكن بما أن جميع سكان الأراضي الوثنية هم وثنيون، فإنهم إن وجدوا الله، فلا بد أن يجدوه من خلال الوثنية. فالديانات الوثنية هي محاولة الإنسان للشعور بالله. وإلا، لا بد لنا أن نستنتج أن الكائن الذي لولاه لما سقط عصفور على الأرض، الكائن الذي لا يضع حشرة في الهواء أو محارًا في الماء إلا ووفر له غذاءً مناسبًا لكي يعيش وينمو، قد ترك

الغالبية العظمى من أبنائه من البشر، الذين خُلقوا بميول دينية من ضمير وخشوع وأمل، دون غذاء مقابل من الحق. هذا الرأي يميل إلى الإلحاد؛ لأنه إذا كان وجود التكيف في كل مكان دليلًا مشروعًا على التصميم الخالق، فإن غياب التكيف في مجال بالغ الأهمية كهذا يميل، إلى حد كبير، إلى دحض هذا الدليل.

أما الرأي الذي نعارضه فيتناقض مع قانون التقدم الذي وحده يُضفي معنى ووحدة على التاريخ. بدلاً من التقدم، تُعلّم هذه الممارسات الانحطاط والفشل. لكننا نرى في مجالات أخرى تقدماً لا تراجعاً. يُظهر لنا علم الجيولوجيا أشكالاً أرقى من الحياة تحلّ محلّ الأشكال الأدنى. ويُبيّن لنا علم النبات كيف تُهيّئ الأشنات والطحالب التربة لنموّ أشكال نباتية أكثر تعقيداً. ويُظهر لنا التاريخ المدني كيف تفسح الحالة البدائية المجال لحالة شبه متحضّرة، ثمّ لحالة متحضّرة. إذا كانت الديانات الوثنية خطوةً تمهيديةً للمسيحية، فإنّ قانون التدرّج هذا يظهر أيضاً في الدين؛ فنرى حينها نظاماً في مسيرة النفس البشرية، "أولاً النبتة، ثم السنبلة، ثمّ الحبة الكاملة في السنبلة". حينها يُمكننا أن نفهم لماذا تأخّر مجيء المسيح حتى حان وقت اكتمال الزمان. ولكن بخلاف ذلك، فإنّ كلّ شيء في هذا المجال المهمّ من حياة الإنسان يسوده الفوضى، بلا وحدة، ولا تقدّم، ولا معنى، ولا عناية إلهية.

نأمل أن تتأكّد هذه الآراء تماماً عندما ندرس كلّ دين عظيم على حدة وبدقة. سنجدهم دائماً يتوقون إلى الله، وغالباً ما يجدونه. سنرى أن أصولها ليست من صنع الكهنة، بل من صنع الطبيعة البشرية؛ وجوهرها ليس خرافات، بل أديان؛ وعقائدها صحيحة في أغلب الأحيان؛ ونزعتها الأخلاقية خيرة في أغلب الأحيان. وبدلًا من أن تنحدر إلى ما هو أسوأ، فإنها تمهد الطريق لما هو أفضل.

**الفقرة 4: نظرة المسيح ورسله إلى الأديان العرقية.**

بحسب المسيح ورسله، كان من المفترض أن تنشأ المسيحية من اليهودية، وتتطور إلى دين عالمي. وعليه، كانت طريقة يسوع هي الذهاب أولًا إلى اليهود؛ وعندما غادر حدود فلسطين

في مناسبة واحدة، أعلن أنه ذاهب إلى فينيقيا فقط للبحث عن خراف بيت إسرائيل الضالة. لكنه ذكر أن لديه خرافًا أخرى، ليست من هذه الحظيرة، عليه أن يحضرها، مدركًا أن بين الوثنيين قلوبًا طيبة وصادقة مهيأة للمسيحية، وهي بالفعل تنتمي إليه؛ خراف تعرف صوته ومستعدة لاتباعه. أعلن أيضًا أن قائد المئة الروماني والمرأة الفينيقية كانا يتمتعان بإيمان عظيم، بل إن إيمان قائد المئة كان أعظم مما وجده في إسرائيل. لكن أبرز تصريح ليسوع، والذي تم تجاهله بشكل لافت، بشأن طبيعة الوثنيين، نجده في وصفه ليوم الدينونة في إنجيل متى (الإصحاح الخامس والعشرون). من الغريب أن يتكهن الناس بمصير الوثنيين، بينما علّم يسوع هنا بوضوح أن جميع الصالحين بينهم هم من رعيته، رغم أنهم لم يسمعوا به قط. يبدأ النص بقوله: "سيُجمع أمامه جميع الأمم" (أو الوثنيين). إنه ليس وصفًا لدينونة العالم المسيحي، بل للعالم الوثني. الكلمة المستخدمة هنا (τὰ ἔθνη) ترد حوالي مئة وأربع وستين مرة في العهد الجديد. تُترجم إلى "الأمم" أكثر من أي كلمة أخرى، أي حوالي ثلاث وتسعين مرة؛ وإلى "الوثنيين" أربع أو خمس مرات؛ وفي المقاطع المتبقية تُترجم كلمة "الأمم" في الغالب إلى "الأمم". ويبدو هنا أنها تعني الأمم أو الوثنيين، وذلك لأنهم يُصوَّرون على أنهم يجهلون المسيح، ويُحكم عليهم لا بمعيار الإيمان المسيحي، بل بإنسانيتهم ومحبتهم للمتألمين. ولذلك، يُقرّ يسوع، من بين هؤلاء الوثنيين، بأن بعضهم ينتمون إليه، أي "الخراف الأخرى"، وليسوا من حظيرة اليهود.

ويُعتبر الرسول بولس، الذي كُلِّف خصيصًا بالتواصل مع الأمم، المرجع الأفضل في هذا الشأن. فهل اعتبر دياناتهم باطلة تمامًا؟ على العكس، أخبر الأثينيين أنهم يعبدون الإله الحق، وإن كانوا يجهلونه. "الذي تعبدونه بجهل، أنا أُبشِّركم به". عندما قال هذا، كان يقف أمام كل ما هو مهيب في ديانة اليونان. رأى المدينة مليئة بالأصنام، والتماثيل المهيبة، وكمال الفن والجمال. هل كان قلبه حينها متقدًا بالسخط على هذه العبادة فحسب، ولم يكن لديه أي تعاطف مع الاحتياجات الروحية التي عبرت عنها؟ لا يبدو الأمر كذلك. فقد لمس في نفوسهم تقوىً صادقة. قال: "أرى أنكم، في كل شيء، شديدو التقوى". أدرك أن عبادتهم تتجاوز الأصنام،

لتصل إلى الله الحق. لم يدّعِ أنه جاء ليُحدث ثورة في دينهم، بل ليُصلحه. لم يتصرف كحطّاب الغابة الذي يقطع الأشجار ويقتلع الجذوع ليزرع محصولاً مختلفًا تمامًا، بل كمزارع النباتات الذي يُطعّم صنفًا محليًا بثمرة أفضل. كانوا يعبدون الله الحق وهم يجهلون. ما أراد الرسول فعله هو أن يُنير جهلهم ببيان من هو ذلك الإله الحق، وما هي صفاته. لذلك، في ملاحظاته اللاحقة، لم يُعلّمهم أن هناك إلهًا واحدًا أسمى، بل افترض ذلك، كأمرٍ مُسلّم به. افترض أنه خالق كل شيء. أن يكون كلي القدرة، "رب السماء والأرض"؛ روحانيًا، "لا يسكن في هياكل مصنوعة بأيدٍ"؛ مطلقًا، "لا يحتاج إلى شيء"، إلا مصدر كل شيء. يقول هذا، وكأنه لا يتوقع أي معارضة أو تناقض؛ ويحتفظ بانتقاداته لعبادتهم للأوثان إلى نهاية حديثه. ثم يوضح بجلاء أن أمم العالم المختلفة لها أصل مشترك، وتنتمي إلى عائلة واحدة، وقد وُضعت بحكمة إلهية في المكان والزمان، لكي تسعى كل أمة إلى الرب بطريقتها الخاصة. لقد أقرّ فيهم بقدرتهم على البحث عن الله وإيجاده، الإله القريب، الذي فيه نعيش؛ ويستشهد بأحد شعرائهم، مُقرًّا ببيانه عن صفات الله الأبوية. الآن، من الشائع جدًا أن يُعجب أولئك الذين ينكرون وجود أي حقيقة في الوثنية، بهذا الخطاب لبولس باعتباره تحفة فنية من الإبداع والبلاغة. لكنه ما كان ليقوله لولا اعتقاده بصحته. إنّ من يمدحون بلاغته على حساب صدقه لا يثنون عليه ثناءً كافيًا. هل قال بولس للأثينيين إنهم يعبدون الإله الحق وهم ليسوا كذلك، وذلك لمجرد التأثير البلاغي؟ إذا كنا نؤمن بهذا عنه، ومع ذلك نعجب به، فلنكفّ من الآن فصاعدًا عن انتقاد اليسوعيين.

كلا! لقد آمن بولس بما قاله، أن الأثينيين كانوا يعبدون الإله الحق، وإن كانوا يجهلون ذلك. كان شعور التبجيل والعبادة يرفعهم إلى غايتها الحقيقية. كل ما كانوا يحتاجونه هو أن تُنير عقولهم. لقد وضع الحق في القلب لا في العقل، ولكنه ربط أيضًا بين المسيحية والشرك عند نقطة التقاء الديانتين، أي في جانبهما الوحدوي. فبينما وضع الله فوق العالم كحاكم له، "إذ هو رب السماء والأرض"، جعله حاضرًا في العالم كحضورٍ كامن، "به نحيا ونتحرك ونوجد". وبعد ذلك، في رسالته إلى الرومان، اتخذ الموقف نفسه. يُعلّم بولس أن الأمميين كانوا على دراية بصفات الله الأزلية (رومية ١: ١٩) ورأوه في أعماله (الآية ٢٠)، وأن لديهم أيضًا في

طبيعتهم شريعة واجبات تُمكنهم من القيام بما ورد في الشريعة. وهذا ما يُسميه "الشريعة المكتوبة في القلب" (رومية ٢: ١٤، ١٥). وهو لا يُلقي عليهم اللوم لجهلهم، بل لعصيانهم. ولذلك، يتفق الرسول بولس معنا في إيجاد حقيقة جوهرية في الديانات الوثنية فيما يتعلق بأخطائها.

غالبًا ما تبنى المدافعون المسيحيون الأوائل الرأي نفسه. وهكذا، اعتقد إكليمندس الإسكندري أن لله خطة عظيمة واحدة لتثقيف العالم، وأن المسيحية هي الخطوة الأخيرة فيها. ورفض اعتبار الديانة اليهودية هي الإعداد الإلهي الوحيد للمسيحية، بل اعتبر الفلسفة اليونانية أيضًا إعدادًا للمسيح. وقد فصّل نياندر آراءه، وقال إن إكليمندس كان مؤسس النظرة الصحيحة للتاريخ.٦ وأعلن ترتليان أن الروح مسيحية بالفطرة. كانت كتب العرافات تُستشهد بها كأعمال نبوية جيدة إلى جانب الأنبياء اليهود. وقد وصف الآباء سقراط بأنه مسيحي قبل بخصوص المسيح.

في السنوات الأخيرة، أدى التنديد المفرط بالديانات الوثنية إلى ردود فعل مؤيدة لها. فقد ساد الاعتقاد بأن من المهين للطبيعة البشرية أن يرضى معظم البشر بالضلال. واعتُبر هذا الاعتقاد إنكارًا لعناية الله بتسعة أعشار البشرية. ونتيجة لذلك، أصبح من الشائع مؤخرًا إعادة الاعتبار للوثنية، ووضعها في مصاف المسيحية، إن لم يكن فوقها. يُتحدث عن الفيدا وكأنها أسمى من العهد القديم، ويُستشهد بكونفوشيوس كمرجع يُضاهي بولس أو يوحنا. وقد حلّ الإعجاب الجاهل بالكتب المقدسة للبوذيين والبراهمة محل التنديد الجاهل والمُطلق بها سابقًا. والآن، نحن بحاجة إلى دراسة ومقارنة موضوعية وموضوعية لهذه الأنظمة من مصادر موثوقة.

الفقرة ٥: سيُقدّم علم اللاهوت المقارن فئةً جديدةً من الأدلة لدعم المسيحية.

إنّ هذا البحث، الذي يُنصف جميع الأديان الأخرى، ويُقرّ بصحتها الجزئية واستخدامها، لن يُقلّل من قيمة المسيحية، بل سيرفعها. سيُقدّم نوعًا جديدًا من الأدلة لصالحها. ولكن قد يتغيّر شكل الحجة المعتاد.

هل المسيحية دينٌ خارقٌ للطبيعة أم طبيعي؟ هل هو دينٌ مُثبتٌ أنه من الله بالمعجزات؟ لقد كان هذا السؤال الأهم في مجال الأدلة خلال القرن الماضي. فقد رُبطت حقيقة المسيحية وأصلها الإلهي بطابعها الخارق للطبيعة، وبوجود أو زوال شيءٍ ما بناءً على نظرةٍ مُحدّدةٍ للمعجزات. ثم، من أجل الحفاظ على حقيقة المعجزات، أصبح من الضروري إثبات عصمة السجل؛ وهكذا تعلّمنا أنه لكي نؤمن بيسوع المسيح، يجب علينا أولًا أن نؤمن بصحة العهد الجديد بأكمله ومصداقيته. يقول السيد باتيسون: "لقد كرّست جميع اللاهوت في إنجلترا جهودها لإثبات مصداقية الدين المسيحي بهذه الطريقة". ويقول الدكتور جونسون: "كان الرسل يُحاكمون أسبوعيًا بتهمة التزوير، وهي جريمة يُعاقب عليها بالإعدام". كان هذا من عمل مدرسة لاردنر، وبالي، وواتلي.

لكن السؤال الحقيقي بين المسيحيين وغير المؤمنين بالمسيحية ليس ما إذا كان ديننا خارقًا للطبيعة أم لا؛ ولا ما إذا كانت معجزات المسيح انتهاكًا للقانون أم لا؛ ولا ما إذا كان العهد الجديد، بصيغته الحالية، من وحي رجال مُلهمين. السؤال الرئيسي، وراء كل هذا، مختلف، ولا يعتمد على وجهات نظرنا حول عالمية القانون. إنه: هل المسيحية، كما علّمها يسوع، هي دين البشرية جمعاء؟ هل هي مجرد دين من بين الأديان الطبيعية؟ هل ستُستبدل بدورها بأديان أخرى، أم أنها الدين الوحيد الذي سيوحد البشرية جمعاء؟ «أأنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟» هذا هو السؤال الذي نوجهه ليسوع الناصري، وإجابته تُشكّل جوهر مشكلة اللاهوت الدفاعي.

انشغل المدافعون عن المسيحية بجدالاتهم الخاصة حول المعجزات، وحول المذهب الطبيعي والمذهب الخارق للطبيعة، وحول وحي الرسل وعصمتهم، حتى أنهم أهملوا مجال البحث الواسع في اللاهوت المقارن. لكن من واجب هذا العلم إثبات صحة المسيحية ببيان أنها تمتلك جميع المقومات التي تؤهلها لتكون دين البشرية جمعاء.

تختلف هذه الطريقة في إثبات المسيحية عن الحجة التقليدية في أنها، بينما تسعى الأخيرة إلى إثبات صحة المسيحية، تُظهر هذه الطريقة صحتها. فإذا استطعنا أن نُبين، من خلال استعراض

موضوعي لأهم ديانات العالم، أن المسيحية، وإن كانت عرقية أو محلية، فهي جامعة أو عالمية؛ وأنها، وإن كانت ناقصة، إذ تمتلك بعض الحقائق وتفتقر إلى أخرى، فإن المسيحية تمتلكها جميعًا؛ وبينما تتسم الأديان الأخرى بالثبات، فإن المسيحية تتطور؛ ولن يكون من الضروري حينها مناقشة أي معنى من معانيها أنها دينٌ فوق الطبيعة. فمثل هذه الدراسة ستُظهر أنها مُلائمة لطبيعة الإنسان. وعندما نرى التكيّف، نستنتج بطبيعة الحال وجود تصميم. فإذا بدت المسيحية، بعد مقارنة شاملة مع الأديان الأخرى، الدين الوحيد المُلائم تمامًا للإنسان، فسيكون من المستحيل الشك في أن الله قد صممها لتكون دين جنسنا البشري؛ وأنها الدين المُختار الذي أرسله الله إلى الإنسان، وحقيقتها حقيقة الله، وطريقها الطريق إلى الله وإلى الجنة.

**الفقرة 6: ستُبين أن معظم أديان العالم عرقية، أو أديان أعراق، بينما المسيحية جامعة، أو مُهيأة لتصبح دين جميع الأعراق.**

ونعني بالأديان العرقية تلك الأديان التي لطالما انحصرت داخل حدود عرق أو عائلة بشرية مُعينة، ولم تُخرّج أتباعًا أو مُهتدين خارجها، إلا صدفةً. نعني بالديانات الكاثوليكية تلك التي أظهرت الرغبة والقدرة على نقل... تجاوزت هذه الحدود، وأصبحت ديانةً لعدد كبير من الأشخاص المنتمين إلى أعراق مختلفة.

والآن، نواجه مباشرةً حقيقةً لافتةً وواضحةً، وهي أن معظم أديان العالم هي أديانٌ محصورةٌ بشكلٍ أو بآخر في أعراق أو أممٍ مُحددة. إنها، كما ذكرنا، أديانٌ عرقية. نستخدم هذه الكلمة اليونانية بدلًا من مُرادفها اللاتيني، "gentile"، لأن"gentile" ، مع أنها تعني حرفيًا "من عرقٍ أو ينتمي إليه"، فقد اكتسبت دلالةً خاصةً من استخدامها في العهد الجديد بمعنى كل من ليسوا يهودًا. أما كلمة "عرقي" فتبقى نقيةً من أي معنى ثانوي أو مُكتسب، وتعني ببساطة ما ينتمي إلى عرقٍ ما.

علم الإثنولوجيا علمٌ حديث، ولا يزال في طور التكوين. ومع ذلك، يُمكن اعتبار بعض استنتاجاته مُثبتة. لقد نبذ هذا التصنيف إلى الأبد تصنيف بلومنباخ القديم للبشرية إلى القوقازيين

وأربعة أنواع أخرى، وقدّم لنا بدلاً منه تقسيمًا لأكبر جزء من البشرية إلى عائلات هندوأوروبية وسامية وتورانية، تاركًا مساحة واسعة خارج التصنيف لم تُصنّف بعد.

يكاد يكون من المستحيل إنكار أن البشرية مُقسّمة إلى أعراق بشرية. هذا ما تُثبته علم وظائف الأعضاء، وعلم النفس، وعلم اللغة، والتاريخ المدني. يُظهر لنا علم وظائف الأعضاء اختلافات تشريحية بين الأعراق. هناك اختلافات واضحة وحقيقية بين جمجمة هندي وجمجمة صيني، كما هو الحال بين جمجمة إنجليزي وجمجمة زنجي. ربما لا يكون الاختلاف كبيرًا، ولكنه حقيقي وثابت. عندئذٍ، تبقى سمات الأعراق متميزة، وتظهر نفس الصفات بعد قرون عديدة تمامًا كما كانت في البداية. نجد الاختلاف نفسه في الشخصية بين اليهود والعرب، وهما مجرد عائلتين مختلفتين من نفس العرق السامي، كما كان بين جديهما يعقوب وعيسو، كما ورد في سفر التكوين. يعقوب واليهود حكماء، محبون للتجارة، يسعون وراء المال، متمسكون بأفكارهم، ويعيشون في المدن؛ أما عيسو والعرب فهم طائشون، متوحشون، يكرهون المدن، ويحبون الصحراء.

ومثال مشابه على الحفاظ على نمط أخلاقي نجده في الاختلافات المميزة بين الألمان والكلت، وهما عائلتان من نفس العرق الهندو-أوروبي. خذ مثلاً رجلاً أيرلندياً وآخر ألمانياً يعملان جنباً إلى جنب على نهر المسيسيبي، ستجد فيهما نفس الاختلافات المميزة التي وصفها تاسيتوس وقيصر بين الألمان والكلت. الألماني يحب الحرية، والكلت يحب المساواة؛ أحدهما يكره الطاغية، والآخر يكره الأرستقراطي؛ أحدهما مفكر جاد، والآخر مفكر سريع البديهة؛ أحدهما بروتستانتي، والآخر كاثوليكي. يصف أميانوس مارسيليانوس، الذي عاش في بلاد الغال في القرن الرابع، شعب الكيلت على النحو التالي (انظر ما إذا كان هذا الوصف ينطبق على هذا العرق اليوم).

يقول: "إن الغاليين في الغالب طوال القامة، ذوو بشرة فاتحة وشعر أحمر، ونظراتهم حادة ومرعبة، مولعون بالنزاعات، ومتغطرسون بوقاحة. لن تطيق جماعة من الغرباء أحدهم، وهو

يُساعده في عراكه زوجته القوية ذات العيون الزرقاء، خاصةً عندما تُمسك بذراعيها البيضاوين الضخمتين، ورقبتها منتفخة وأسنانها تصرّ، فتبدأ بتوجيه اللكمات والركلات، وتُطلق قبضتيها كالحجارة من المقلاع. معظم أصواتهم مرعبة ومهددة، سواء كانوا هادئين أو غاضبين. جميع الأعمار مؤهلة للحرب. إنهم أمة مولعة بالخمر، ويخترعون مشروبات كثيرة تُشبهه، وبعض الفقراء منهم يتجولون وقد تبلدت حواسهم من كثرة السكر".

نجد الآن أن لكل عرق، إلى جانب صفاته الأخلاقية المميزة، صفات دينية خاصة، تجعله يميل إلى دينٍ دون غيره. هذه الأديان هي ثمر العرق، تنبثق منه كأزكى عبيره. وهكذا نرى أن البراهمية محصورة في ذلك الفرع أو العرق من العائلة الآرية العظيمة الذي سكن الهند لأكثر من ثلاثين قرنًا. وهي تنتمي إلى الهندوس، الشعب الذي استمد اسمه من نهر السند، الذي دخل الهند عبر روافده من الشمال الغربي. لم تسعَ البراهمية قط إلى التوسع خارج نطاق هذا النوع من البشر. ربما يعتنقها مئة وخمسون مليون إنسان. وقد اعتنقها هذا العرق دينًا له خلال فترة طويلة في تاريخ البشرية. كتبه المقدسة يزيد عمرها بالتأكيد عن ثلاثة آلاف عام. لكن طوال هذه المدة، لم تنتشر إلى أي عرق بشري خارج شبه القارة الهندية. وهكذا تُعتبر ديانة عرقية بحتة، لا تُظهر أي ميل أو رغبة في أن تصبح دينًا للبشرية جمعاء.

وينطبق الأمر نفسه على ديانة كونفوشيوس. فهي تنتمي إلى الصين والصينيين، وتناسب أذواقهم وعبقريتهم. وقد اتخذوها ديانةً رسميةً لهم منذ نحو ألفين وثلاثمائة عام، وهي تُهيمن على آراء قادة الرأي بين ثلاثمائة مليون رجل. لكن كونفوشيوس خارج الصين إنّ "فوتشيوس" ليس إلا اسمًا.

وكذلك الحال مع نظام زرادشت. فقد كان لفترة طويلة دينًا لقبيلة آرية سيطرت على البشرية. امتدّ الفرس عبر غرب آسيا، وغزوا العديد من الأمم، لكنهم لم ينشروا دينهم قط. كان دينًا قوميًا أو عرقيًا بحتًا، يقتصر على الإيرانيين وذريتهم، البارسيين.

وبالمثل، يمكن القول إنّ ديانات مصر واليونان وإسكندنافيا واليهود والإسلام والبوذية هي ديانات عرقية. ديانتا مصر وإسكندنافيا كذلك تمامًا. يُقال، بلا شك، إنّ اليونانيين استعاروا أسماء آلهتهم من مصر، لكنّ الآلهة نفسها كانت مختلفة تمامًا. صحيح أيضًا أنّ بعض آلهة الرومان استُعيرت من اليونانيين، لكنّها لم تُخلَ. لقد رددوا الأساطير اليونانية عن ظهر قلب، إذ لم تكن لديهم القدرة على ابتكار أساطير خاصة بهم. لكنّهم لم يتلقّوا الدين اليوناني أبدًا. فبدلاً من أن تكون آلهة روما تجسيداً لإنسانيتها، لم تكن سوى خدام للدولة، من نوع أرقى من القناصل والحكام والحراس. وكان أوليمبوس روما الحقيقي هو قاعة مجلس الشيوخ على تل الكابيتول. وكانت اليهودية في الواقع ديانة عرقية، رغم أنها كانت تطمح إلى الشمولية وتتوقعها، وقد استقطبت أتباعاً. لكنها لم تتسامح مع ما هو غير جوهري، ولذا فشلت في أن تصبح شمولية. ولم تستطع الديانة اليهودية، حتى استعانت بالمسيحية، أن تفعل أكثر من استقطاب أتباع هنا وهناك. أما المسيحية، فبينما بشرت بتعاليم يسوع والعهد الجديد، استطاعت أن تحمل أيضاً ثقل العهد القديم، وأن تمنح اليهودية نوعاً من الشمولية. وكانت ديانة محمد شمولية، إذ أصبحت ديانة أعراق شديدة التباين، كالعرب والأتراك والفرس، الذين ينتمون إلى الأنواع الثلاثة الكبرى للعائلة البشرية. لكن الإسلام لم يسعَ قط إلى استقطاب معتنقين جدد، بل إلى رعايا فقط. لم تطلب المسيحية الإيمان، بل مجرد الخضوع. ولهذا، يخبرنا السيد بالغراف والسيد لين والسيد فامبيري أن في الجزيرة العربية ومصر وتركستان جموعًا غفيرة ممن يُظهرون الإسلام ظاهريًا، لكنهم في قرارة أنفسهم يرفضون محمدًا، وهم في الحقيقة وثنيون. ولكن لا شك أن هناك نزعة جامعة في كل من اليهودية والإسلام؛ وهذه النزعة نابعة من العقيدة العظيمة التي تشترك فيها مع المسيحية، ألا وهي وحدانية الله. فالإيمان بهذه العقيدة هو أساس كل أمل في دين عالمي، والرغبة والقدرة على هداية الآخرين تنبعان من عقيدة وحدانية الله.

لكن المسيحية تُعلّم وحدانية الله لا بوصفها مجرد سيادة للقوة والإرادة، بل بوصفها سيادة للمحبة والحكمة؛ فهي تُعلّم الله أبًا، لا ملكًا فحسب؛ لذا فهي لا تسعى فقط إلى استقطاب أتباع

ورعايا، بل إلى استقطاب معتنقين جدد. وهكذا، انطلقت المسيحية كدين سامي بين اليهود، ثم انتشرت عبر الأرخبيل اليوناني، فحوّلت الشعوب اليونانية واللاتينية إلى المسيحية؛ ثم القوط واللومبارديين والفرنجة والوندال؛ وفي وقت لاحق، الساكسونيين والدنماركيين والنورمان. وفي الوقت نفسه، اتجه مبشروها النسطوريون شرقًا، فحوّلوا أرمينيا وبلاد فارس والهند والصين إلى المسيحية. وفي العصور اللاحقة، حوّلت المسيحية السود والهنود وسكان جزر المحيط الهادئ. لكن ثمة ما أوقف تقدمها بعد نجاحاتها الباهرة الأولى التي امتدت لسبعة أو ثمانية قرون. وفي القرن العاشر، وصلت إلى نهايتها. لم تنجح البعثات التبشيرية الحديثة، سواء أكانت تابعة لليسوعيين أم البروتستانت، في تحويل أمم وأعراق بأكملها، بل أفرادًا متفرقين. ولعل سبب هذا التوقف هو أن المسيحيين قد كرروا أخطاء اليهود والمسلمين. فقد سعوا إلى استقطاب أتباع لنظام عبادة وطقوس ظاهري، أو إلى جعلهم خاضعين لعقيدة معينة؛ لكنهم لم يسعوا إلى تحويلهم إلى فكرة وأسلوب حياة. عندما يذهب المبشرون المسيحيون ويقولون للهندوس أو البوذيين: "أنتم تسيرون بالفعل في طريقكم إلى الله، فدينكم منه، ومُلهم بروحه؛ والآن يرسل إليكم ما هو أسمى وأرقى من خلال ابنه، الذي لم يأتِ ليهدم بل ليكمل، لا ليأخذ منكم خيرًا بل ليزيدكم خيرًا"، حينها سنشهد انطلاق عملية التحول الديني التي توقفت في القرنين التاسع والعاشر.

اليهودية والإسلام والمسيحية، وكلها تُعلّم بوحدانية الله المطلقة، سعت جميعها إلى الانتشار العالمي. فشلت اليهودية لأنها سعت إلى استقطاب المهتدين بدلًا من استقطاب معتنقين جدد. وفشل الإسلام، دين محمد (وهو في الحقيقة طائفة مسيحية متأثرة باليهودية)، لأنه سعى إلى جعل الرعايا رعايا له بدلًا من استقطاب معتنقين جدد. كانت فتوحاته على مختلف الأعراق واسعة النطاق، لكنها لم تكن عميقة. يضم الإسلام اليوم في طياته أربع أعراق متميزة على الأقل: العرب، وهم عرق سامي؛ والفرس، وهم عرق هندو-أوروبي؛ والزنوج؛ والأتراك أو التورانيون. ولكن، إذا نظرنا إلى الأمر نظرة صحيحة، فإن الإسلام ليس إلا طائفة مسيحية منحرفة، ولذا يُعزى كل هذا إلى مصالح المسيحية.

إن الإسلام أشبه بيوحنا المعمدان الذي ينادي في البرية: "أعدوا طريق الرب"؛ ومحمد مرشدٌ يدعو الناس إلى المسيح. إنه يفعل للأمم ما فعلته اليهودية، أي أنه يعلّم وحدانية الله. لقد حلّ عيسو محل يعقوب في تدبير العناية الإلهية. عندما رفض اليهود المسيح، توقفوا عن عملهم في العناية الإلهية، وحلّ محلهم أبناء عمومتهم العرب. لذلك، ينبغي اعتبار فتوحات الإسلام بمثابة فتوحات تمهيدية للمسيحية.

هناك نظام آخر أظهر بعض الميول نحو الشمولية، وهو البوذية، التي انتشرت في النصف الشرقي من آسيا. ولكن على الرغم من أنها تضمّ قومياتٍ مختلفة، فمن المشكوك فيه أن تضمّ أي تنوّعٍ عرقي. يبدو أن جميع البوذيين ينتمون إلى عائلة المغول العظيمة. وعلى الرغم من أن هذا النظام نشأ بين العرق الآري في الهند، إلا أنه تخلى عن ارتباطه بتلك العائلة وانتقل كليًا إلى المغول.

لكن المسيحية، منذ البداية، أظهرت قدرتها على استيعاب معتقدات مختلف أعراق البشر. واليوم، كما في يوم الخمسين، تسمع أعراقٌ كثيرة الرسل يتكلمون بألسنتهم التي ولدوا بها، من فرثيين وميديين وعيلاميين، وسكان بلاد ما بين النهرين، واليهودية، وكبادوكيا، وبنطس وآسيا، وفريجيا وبمفيلية، ومصر وأجزاء ليبيا المحيطة بقورينا، وغرباء روما، وكريتيين، وعرب. كانت معجزة التكلم بألسنة رمزًا لتأثير الحق في اختراق عقول وقلوب مختلف الشعوب. في الواقع، حاول المسيحيون اليهود تكرار خطئهم القديم في المسيحية، وهو الخطأ الذي حال دون انتشار اليهودية عالميًا. فقد أرادوا الإصرار على ألا يصبح أحد مسيحيًا إلا إذا أصبح يهوديًا في الوقت نفسه. ولو نجحوا في ذلك، لكانوا قد منعوا إنجيل المسيح من أن يصبح ديانة كاثوليكية. لكن الرسول بولس رُفع لمواجهة هذا الخطر، فمنع هذا المسار الانتحاري. ونتيجةً لذلك، انتشرت المسيحية في أوروبا على الفور، وأصبحت دينًا لليونانيين والرومان كما لليهود. نزع بولس عنها طابعها اليهودي، وأخبرهم أنهم كمسيحيين لا علاقة لهم بالشريعة اليهودية، ولا بأعياد الفصح أو السبت أو طقوس اليهود. كان عليهم كمسيحيين أن يعرفوا المسيح فقط، لا أن يعرفوه معرفة جسدية، أي ليس كيهودي. وهكذا أصبحت المسيحية دينًا

جامعًا، يقوم على نشر حقائق عظيمة وحياة إلهية. انتشرت المسيحية في اليونان وروما وشمال إفريقيا وفارس وغرب آسيا منذ البداية. قهرت الغزاة القوطيين والجرمان للإمبراطورية الرومانية. وعلى يد المبشرين الآريوسيين، اعتنقها القوط والوندال واللومبارديون. وعلى يد المبشرين النسطوريين، توغلت شرقًا حتى الصين، وجلبت إليها معتنقين جدد. وبالمثل، انتشرت الإنجيل في جميع أنحاء شمال أفريقيا، ومنها طُرد لاحقًا بقوة الإسلام. وقد أثبت، بالتالي، قدرته على التكيف مع كل تنوعات الجنس البشري.

الفقرة ٧: من المرجح أن يُظهر علم اللاهوت المقارن أن الأديان العرقية أحادية الجانب، إذ تحتوي كل منها على حقيقة خاصة بها، لكنها ناقصة، تفتقر إلى حقيقة مقابلة. أما المسيحية، أو الكاثوليكية، فهي كاملة من جميع النواحي.

البراهمية، على سبيل المثال، كاملة من ناحية الروح، ناقصة من ناحية المادة؛ مكتملة فيما يتعلق باللامتناهي، وخالية من المحدود؛ تُقرّ بالأبدية لكنها لا تُقرّ بالزمن، بالله لكنها لا تُقرّ بالطبيعة. إنها نظام واسع من وحدة الوجود الروحية، لا وجود فيه للحقيقة إلا الله، وكل ما عداه مايا، أو وهم. العقل الهندوسي متدين بشكل فريد، ولكنه أيضًا غير أخلاقي بشكل فريد. ليس لديه تاريخ، لأن التاريخ ينتمي إلى الزمن. لا أحد يعلم متى كُتبت كتبها المقدسة، ومتى بدأت حضارتها، وما الذي أدى إلى تقدمها، وما الذي أدى إلى انحدارها. إنها لطيفة، متدينة، مجردة، قادرة في آنٍ واحد على أسمى الأفكار وأحط الأفعال. تجمع بين أقصى درجات الزهد والتجرد من الحياة مع أقصى درجات الانغماس في الملذات. يكمن مفتاح نظام الفكر والحياة الهندوسي برمته في هذه النزعة الأصلية لرؤية الله، لا الإنسان؛ الأبدية، لا الزمن؛ اللامتناهي، لا المحدود.

أما البوذية، التي كانت ثورة على البراهمية، فلها حقائق معاكسة تمامًا وعيوب معاكسة. حيثما تكون البراهمية قوية، تكون ضعيفة؛ وحيثما تكون البراهمية ضعيفة، تكون قوية. إنها تعترف بالإنسان، لا بالله؛ بالروح، لا بالكل؛ بالمحدود، لا باللامتناهي؛ بالأخلاق، لا بالتقوى. إلهها

الوحيد، بوذا، هو إنسانٌ اجتاز عددًا لا يُحصى من التناسخات، حتى بلغ، بفضل فضائله المثالية، سيادة الكون. جنتها، النيرفانا، هي بالفعل عالم النعيم اللامتناهي؛ لكنها، لعجزها عن إدراك اللامتناهي، لا تُسمّيه شيئًا. فالسماء، لكونها اللامتناهي الذي لا يُتصوّر، تُعادل النفي المُطلق. والطبيعة، بالنسبة للبوذي، بدلًا من أن تكون الظلّ المُضلّل لله، كما يراها البراهمة، هي يُصوَّر النظام الكونفوشيوسي على أنه شبكة من القوانين، تُكافئ وتُعاقب على الطاعة والعصيان على حد سواء.

يتمتع هذا النظام بالعديد من المزايا، لا سيما في تأثيره على المجتمع. فهو النظام الأكثر محافظة، والأكثر واقعية في الوقت نفسه، وتكمن فضيلته الأساسية في تبجيل كل ما هو كائن. لا يُعكّر صفوه الخوف أو الأمل في التغيير؛ فالما كان هو ما سيكون؛ وقد استُبعدت فكرة التقدم تمامًا من الفكر الصيني. الأمان والراحة والسلام، هذه هي بركاته. ولعلّ الراحة المادية، أو ما يُعرف بالرفاهية الدنيوية، لم تبلغ ذروتها كما بلغتها الإمبراطورية السماوية. تلك الفضيلة التي انتشرت على نطاق واسع في الحضارة الغربية، وهي احترام الوالدين، لا تزال راسخة في الصين. يُكرّم الإمبراطور باعتباره أبًا لشعبه؛ ويُقدَّس الأجداد في كل أسرة؛ وأفضل مكافأة تُمنح على العمل الصالح هي براءة النبل، التي لا تُمنح للأبناء، بل للوالدين. هذا هو الجانب المشرق من الحياة الصينية؛ أما الجانب المظلم فهو الملل المُخيف، والموت الأخلاقي، الذي يُصيب شعبًا لا يعرف الأمل ولا التطلعات ولا حتى الشعور بالتقدم. ومن هنا تأتي عادة الانتحار بين هذا الشعب، مما يدل على ضعف تمسكهم بالحياة. ففي كل مسرحية صينية، نجد حالتي انتحار أو ثلاث. يُفضل الجندي الانتحار على خوض المعركة. وإذا أغضبتَ صينيًا، فإنه سينتقم منك بقتل نفسه أمام بابك، آملًا أن يُسبب لك بعض الإزعاج. هذه هي مزايا وعيوب نظام كونفوشيوس.

أما مذهب زرادشت وكتاب الزند أفستا فهو أنبل بكثير. فكرته الأساسية هي أن كل إنسان جندي، مُلزم بمحاربة الشر في سبيل الخير. والعالم، في الوقت الحاضر، مسرح لحرب عظيمة بين جيوش النور وجيوش الظلام. كل إنسان يُفكر ويتكلم ويتصرف بنقاء هو خادم

لأورمزد، ملك النور، وبذلك يُساعد في قضيته. كانت نتيجة هذه العقيدة تلك الإمبراطورية الفارسية العظيمة، التي أذهلت العالم لقرون بنجاحاتها الباهرة؛ وفضيلة وذكاء البارسيين في عصرنا الحالي، الممثلين الوحيدين في العالم لتلك الديانة العريقة. الشيء الوحيد الذي ينقص هذا النظام هو الوحدة. فهو يعيش في صراع دائم. فضائله هي فضائل الجندي. عيوبه ومزاياه، على حد سواء، نقيض تام لتلك الموجودة في الصين. فإذا كان السلام الدائم في الصين يؤدي إلى الركود الأخلاقي والموت، فإن الصراع الدائم في بلاد فارس يؤدي إلى الإنهاك. سارت الإمبراطورية الفارسية سريعًا في لهيب قصير نحو زوالها؛ أما الإمبراطورية الصينية فتنمو دون تغيير عبر ملايين السنين.

إذا كانت البراهمية والبوذية تحتلان قطبين متقابلين على نفس محور الفكر، وإذا كان نظام كونفوشيوس يقف، على محور آخر، في مقابل نظام زرادشت، فإننا نجد تطورًا ثالثًا لتناقضات قطبية مماثلة في أنظمة مصر القديمة واليونان. تمثل مصر الطبيعة، واليونان الإنسان. وعلى الرغم من غموض ديانة مصر القديمة، تلك الديانة التي تُشبه أبو الهول على النيل، إلا أنه لا يزال بإمكاننا تتبع بعض جوانب سرها. يظهر تقديسها للتنظيم في ممارسة التحنيط، حيث كانت أجساد البشر والحيوانات تُعتبر إلهية. حتى تنظيم النباتات كان يحمل في طياته شيئًا من القداسة: **"يا أمة مقدسة"**، كما قال الشاعر الروماني الساخر، **"آلهتها تنمو في الحدائق!"**. تلك القوة التشكيلية للطبيعة، التي تظهر في الحياة العضوية والنمو، شكلت، بأشكال مختلفة، كما سنرى لاحقًا، مجمع الآلهة المصري. انقسمت قوة الحياة في الطبيعة إلى ثلاث مجموعات من الآلهة، تمثل أسمى هذه المجموعات أوسع تجلياتها. كنيف، ونيث، وسيفيك، وبشت، هي رموز، وفقًا لليبسيوس، لروح العالم، ومادة العالم، والمكان، والزمان. تُظهر لنا كل دائرة من دوائر الآلهة جانبًا من جوانب عمل قوى الطبيعة الغامضة، وقوانينها الخفية. لكن عندما نصل إلى اليونان، تتحول هذه القوانين المتجسدة إلى بشر. فكل شيء في مجمع الآلهة اليوناني بشري. وتظهر جميع الميول البشرية متجليةً في أشكال نورانية متوهجة على جبل أوليمبوس. آلهة مصر قوى وقوانين، أما آلهة اليونان فهي أشخاص.

وتظهر الميول المتناقضة لهذين الشكلين المتعارضين من التقوى في تطور الحياة المصرية واليونانية. كانت آلهة مصر أسرارًا بعيدة جدًا عن الفهم الشعبي بحيث لا يمكن عبادتها؛ وهكذا تحول الدين في مصر إلى مجرد طقوس دينية. أما في اليونان، فكانت الآلهة مألوفة جدًا، قريبة جدًا من الناس، بحيث لا يمكن عبادتها بأي تبجيل حقيقي. ولأنها تشارك في جميع عيوب البشر ورذائلهم، فلا بد أن يؤدي هذا التقارب إلى الازدراء عاجلاً أم آجلاً. وكما اندثرت ديانة مصر بسبب إخفائها عن الناس، كنظام باطني محصور في أيدي الكهنة، كذلك اندثرت ديانة اليونان، التي لم يكن فيها كهنوت كنظام ديني، لأن الآلهة لم تعد موضع احترام.

نرى من هذه الأمثلة كيف أن كل يميل أحد أوجه القصور في الديانات العرقية الكبرى إلى تقديم بيان غير متناسب ومفرط، لأنه أحادي الجانب، لحقيقة أو قانون إلهي. وهنا يبرز السؤال: "هل المسيحية أيضًا أحادية الجانب، أم أنها تحوي في جوهرها كل هذه الحقائق؟" هل هي شاملة ومتكاملة، بحيث تستطيع أن تجد لكل دين طبيعي حقيقة مماثلة، وبالتالي تسد نواقص كل دين من خلال كمالها الخاص؟ إذا ثبت امتلاكها لهذا الشمول، فإنها تُصنف على الفور في مرتبة خاصة بها. لا يمكن تصنيفها مع الديانات الأخرى، لأنها لا تشترك معها في هذا العيب المشترك. في كل حالة أخرى، يمكننا أن نلمس بأصابعنا موضع الضعف، الجانب الفارغ. هل يوجد مثل هذا الضعف في المسيحية؟ هذا هو دور اللاهوت المقارن.

أما الجانب الإيجابي في البراهمية، فقد رأينا أنه إدراكها للحقائق الروحية. وهذا الجانب حاضر بقوة في المسيحية أيضًا. لا يقتصر ظهور هذا المفهوم على نصوص العهد الجديد مثل: "الله روح"، و"الحرف يقتل، والروح يحيي"، ولا يقتصر الأمر على أن العهد الجديد يتجنب مذهب وحدة الوجود في مقاطع مثل: "الذي منه، وبه، وإليه كل الأشياء"، و"الذي هو فوق الكل، ومن خلال الكل، وفينا جميعًا"، و"به نحيا ونتحرك ونوجد"، بل إن تاريخ المسيحية برمته هو سجل لروحانية مفرطة. وقد تجلت هذه الروحانية في عبادة الكنيسة، وترانيمها، ونزعاتها نحو الزهد، وازدراءها للأرض والإنسان. ولذلك، فإن المسيحية تلتقي بالبراهمية في جانبها الإيجابي، بينما تُكمل نفيها، كما سنرى لاحقًا، بإضافة اعتراف كامل بالإنسان والطبيعة.

أما الجانب الإيجابي للبوذية فهو إدراكها للروح البشرية وقوانين الكون الطبيعية. إذا نظرنا إلى العهد الجديد وتاريخ الكنيسة، نجد هذا العنصر مُعبَّرًا عنه بوضوح. يظهر في جميع أمثال وتعاليم يسوع، حيث يُصوَّر الإنسان كفاعل مسؤول، يُكافأ أو يُعاقب وفقًا لحجم أعماله، ويتولى حكم عشر أو خمس مدن بحسب إدارته. وعندما نتأمل في التطبيق العملي للمسيحية، نجد تركيزًا مُبالغًا فيه على واجب إنقاذ النفس. يظهر هذا التقدير المُفرط بشكل رئيسي في النظام الرهباني للكنيسة الرومانية، وفي الطوائف الكالفينية البروتستانتية. كما يبرز مجددًا، بشكلٍ لافت، في كتب مثل "دستور الإنسان" لكومب، الذي تتطابق نظريته تمامًا مع نظرية البوذيين؛ أي أن غاية الحياة فضيلة حكيمة، تتمثل في الطاعة الرشيدة لقوانين الكون الطبيعية. كلا النظامين يستبدلان الحكمة بالعناية الإلهية كمُحكِّم لمصير الإنسان. لكن، بصرف النظر عن هذه الميول الخاصة في المسيحية، لا شك أن التجربة المسيحية برمتها تُقرّ بالحقيقة الإيجابية للبوذية في اعتبارها الروح البشرية وحدةً جوهريةً محدودةً، لكنها متطورة، لا تُبتلع، كما في البراهمية، في هاوية الوجود المطلق.

أما الجانب الإيجابي في نظام كونفوشيوس فهو تنظيم الدولة على أساس الأسرة. فحكم الإمبراطور حكمٌ أبوي، وطاعة الرعية طاعةٌ بنوية. مع أن يسوع لم يُسمِّ الله "الأب" لأول مرة، إلا أنه كان أول من أدخل البشر في علاقة بنوية حقيقية مع الله. فالكنيسة الرومانية مُنظَّمة على فكرة الأسرة. وكلمة "بابا" تعني "الأب"؛ فهو أب الكنيسة جمعاء. وكل أسقف وكل كاهن هو أيضًا أبٌ لعائلة أصغر، وكل من وُلد في الكنيسة هم أبناؤها، كما أن كل من وُلد في عائلة يُولد ابنًا وبنتًا لها. في البروتستانتية أيضًا، يُنظر إلى المجتمع على أنه مُكوّن من عائلات كما يُكوّن الجسد من خلايا. في الصين، وفي العالم المسيحي عمومًا، تُعتبر الحياة الأسرية مقدسة ومُقدّسة. في بعض الأنظمة الأبوية، يُلغي تعدد الزوجات دور الزوجة والأم؛ وفي أنظمة أخرى، يكون الأب مُستبدًا، والأطفال عبيدًا؛ وفي أنظمة أخرى، تُدمر سلطة الدولة الجبارة استقلال الأسرة. المسيحية وحدها، إلى جانب الصين، تقبل مفهوم الحياة الأسرية بكل عناصره المحافظة، مع إضفاء الأمل الأسمى على ملكوت السماوات وأخوة البشرية.

إن فكرة ملكوت السماوات، المحورية في المسيحية، هي أيضًا الدافع الأساسي في ديانة زرادشت. فكما أن كل إنسان في الزند أفستا جندي، يُقاتل إما في سبيل النور أو الظلام، والحياد مُستحيل؛ كذلك في الإنجيل، يقف النور والخير في مواجهة الظلام والشر كأعداء دائمين. يسري تيار من الثنائية في الكتب المقدسة المسيحية وتعاليم الكنيسة. الله والشيطان، الجنة والنار، هما الخياران الوحيدان. على كل فرد أن يختار بينهما. في اللاهوت المعاصر، تم التأكيد على هذه الثنائية لدرجة أنها تجاوزت تلك الواردة في الزند أفستا. عقيدة العقاب الأبدي لطالما كان مفهوم الخلاص الأبدي والجحيم الأبدي هو العقيدة السائدة في المسيحية، بينما يُرجّح أن الأفيستا الزندية، وبالتأكيد الدين في تطوره اللاحق، تُعلّم بالخلاص الشامل، وانتصار الخير في النهاية على الشر. مع ذلك، عمليًا، ونتيجةً لثراء المسيحية وشموليتها، فقد تمّ تحييد هذا الميل إلى الثنائية من خلال توحيدها، وبقي الشر تابعًا لها؛ بينما في الديانة الزندية، اتخذ مبدأ الشر أبعادًا جعلته المنافس الأقوى للخير في ذهن المتعبد. هنا، كما في السابق، يمكننا القول إن المسيحية قادرة على إنصاف كل الحقائق الكامنة في عقيدة الشر، متجنبةً أي تفاؤل سطحي، ومُدركةً حقيقة أن كل حياة حقيقية لا بد أن تنطوي على طبيعة الصراع.

أما الجانب الإيجابي للديانة المصرية، فقد رأينا أنه يتمثل في إدراك العنصر الإلهي في الطبيعة، وتلك الحياة المرنة والغامضة التي تتجسد في جميع الكائنات الحية. ولا نجد الكثير من هذا الرأي مذكورًا صراحةً في العهد الجديد. لكن يبدو أن مبادئ المسيحية تتضمن ذلك ضمنيًا، بصورة غير مكتملة، للأسباب التالية: (1) لأن التوحيد المسيحي يختلف عن التوحيد اليهودي والإسلامي في إقراره بوجود الله "في كل شيء" و"فوق كل شيء". (2) لأن الفن والأدب المسيحي يختلفان عن الفن والأدب الكلاسيكي في العنصر الرومانسي، الذي يمثل جوهر هذه الحياة الغامضة في الطبيعة. فالفنان الكلاسيكي هو صانع، أما الفنان الرومانسي فهو باحث. الأول يُجسد المادة الجامدة، بينما الثاني يبحث عن حياتها الخفية. (3) لأن العلم الحديث هو ابتكار، أي اكتشاف. فهو يُقر بوجود أسرار في الطبيعة تستدعي البحث، ويصبح هذا البحث اهتمامًا دينيًا جادًا لدى جميع العلماء الحقيقيين. يبدو لهؤلاء الرجال أن التشكيك في

وحي الطبيعة أو التساؤل عنه يُعدّ تدنيسًا، وهم يؤمنون بوحيها المعصوم تمامًا كما يؤمن المتعصب بوحي الكتاب المقدس المعصوم، أو كما يؤمن رجل الدين بوحي الكنيسة المعصوم. لذلك، يمكننا القول إن الحقيقة الجوهرية في النظام المصري قد تم استيعابها في حياتنا المسيحية المعاصرة.

وأخيرًا، كيف هو الحال مع ذلك النقيض من الفكر الديني الذي ازدهر في "العلوم الإنسانية الجميلة للدين القديم" في العقل اليوناني العظيم؟ كانت آلهة اليونان بشرًا. لم يكونوا مجرد أفكار مجردة تخفي قوى وقوانين الطبيعة. بل كانوا واضحين كالشمس، ساطعين كظهيرة النهار، جماعة جميلة من الرجال والنساء، مثاليين ولطيفين، على بُعد قليل، في مكانة أعلى. لقد كانت الإنسانية مُسقطة على السماء، مخلوقات إلهية ذات جمال يفوق جمال البشر، لكنها تنبض بالحياة الإنسانية والتعاطف الإنساني. هل لدى المسيحية ما تقدمه بدلًا من هذا النظام الساحر للآلهة والإلهات البشرية؟

نجيب بأن العقيدة الأساسية للمسيحية هي التجسد، أي الكلمة التي صارت جسدًا. إنه الله المتجلي في الإنسان. لطالما آمنا بهذا الأمر في إطار عقائدي معين. وتُعبّر عنه العقيدة التثليثية الشائعة بصيغة غير دقيقة وغير منطقية. ومع ذلك، يُنظر إلى المسيح يسوع دائمًا على أنه أفضل تجلٍّ لله. ولكن ما لم يكن هناك عنصر بشري في الألوهية، لما استطاع أن يُعلن عن نفسه بهذه الصورة في حياة بشرية. ولذلك، تُكرر عقيدة التجسد قول موسى: "خُلق الإنسان على صورة الله". يفصل التوحيد اليهودي والإسلامي الله تمامًا عن العالم. أما التوحيد الفلسفي في عصرنا، فيفصل الله عن الإنسان، إذ يُعلّم أنه لا يوجد شيء مشترك بينهما يُمكن من خلاله التوسط في الله، مما يجعله غير قابل للفهم تمامًا. تُقدّم لنا المسيحية عمانوئيل، الله معنا، بعيدًا كل البعد عن الاستبداد المطلق للتوحيد السامي وعن محدودية البشرية ونقصها في أوليمبوس. نرى الله في المسيح، مفعمًا بالتعاطف مع الإنسان، الله "فينا جميعًا"؛ ومع ذلك نراه في الطبيعة، والعناية الإلهية، والتاريخ، "فوق كل شيء" و"من خلال كل شيء". ربما بالغت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في إضفاء الطابع الإنساني على الدين. فلكل إله وإلهة من آلهة

اليونان، قدمت لنا، على لوحة خالدة، رئيس ملائكة أو قديسًا نعبده ونحبه. فبدلًا من أبولو والثعبان، لدينا القديس ميخائيل والتنين لغيدو؛ وبدلًا من عطارد الخفيف، تقدم لنا القديس سيباستيان؛ وبدلًا من ديانا "العذراء"، أغنيس أو سيسيليا السماوية. السماء الكاثوليكية مأهولة، من أعلى إلى أسفل، بأشكال بشرية جميلة؛ وعلى العرش العلوي نجد القداسة والحنان متجسدين في ملكة السماء وابنها الإلهي. وهكذا تتحقق جميع العلوم الإنسانية اليونانية في الإيمان المسيحي الواسع.

من خلال هذا المسح النقدي الذي أوجزناه بإيجاز، سيتضح أن كلًا من الديانات العرقية الكبرى مكتظة من جانب، وخالية من الجانب الآخر، بينما المسيحية مكتظة من جميع النواحي.
المسيحية مهيأة لتحل محلها، ليس لأنها إنها خاطئة، ولكنها صحيحة في حدودها. فهم "يعرفون بعض الشيء ويتنبأون بعض الشيء، ولكن عندما يأتي الكمال، يزول ما هو ناقص."

الفقرة ٨: من المرجح أن يُظهر علم اللاهوت المقارن أن الديانات العرقية متوقفة، أو منحطة، وستنتهي، بينما الدين الكاثوليكي قادر على التطور التدريجي.

لقد انتهت ديانات فارس ومصر واليونان وروما، بعد أن شاركت مصير الحضارة الوطنية التي كانت كل منها جزءًا منها. أما ديانات الصين والإسلام وبوذا ويهوذا فقد توقفت جميعها، وبقيت على حالها، وتبدو ظاهريًا غير قابلة للتغيير. ومثل السفن العظيمة الراسية في مجرى النهر، يمر تيار الزمن من حولها، وفي كل عام تتخلف أكثر عن روح العصر، وتتناقص انسجامها مع متطلباته. ويبدو أن المسيحية وحدها، من بين جميع الديانات البشرية، تمتلك القدرة على مواكبة الحضارة العالمية المتقدمة. كما تنمو روح الطفل مع جسده، حتى إذا ما بلغ سن الرشد، تصبح روحه روح رجل لا روح طفل، كذلك يستمر إنجيل يسوع في كونه روح الثقافة الإنسانية جمعاء. فهو يتخلى باستمرار عن أشكاله القديمة ويتخذ أشكالاً جديدة. لقد خرج من جسده اليهودي بتوجيه من بولس. وفي عصر التأمل، تطور إلى عقائد وأنظمة. وفي عصر العبادة، طور طقوساً وشعائر. وعندما ترك سقوط روما أوروبا بلا وحدة أو مركز، منحها

تنظيماً ونظاماً من خلال البابوية. وعندما تحولت البابوية إلى استبداد، ودعت النهضة إلى حرية الفكر، برزت البروتستانتية فجأة، كما تُخرج الشجرة على ضفاف الماء أغصانها في موسمها. البروتستانتية، حرة كالهواء، تنفتح على مختلف الطوائف، كل منها تستجيب لحاجة إنسانية ما؛ كاللوثرية، والكالفينية، والميثودية، والسويدنبورغية، والعقلانية. تزدهر المسيحية في العلوم والآداب والفنون الحديثة، كأبناءٍ ينسون أمهم في كثير من الأحيان، ويجهلون مصدرهم، لكنهم مع ذلك يرتوون من ثديها ويشاركون في حياتها. المسيحية، روح الإيمان والأمل والمحبة، هي النبع العميق للحضارة الحديثة. ابتكاراتها للجميع، لا للأقلية. علومها ليست حكرًا على أحد، بل هي متاحة للجميع. إنها ترتقي بالجماهير التي قُمعت في كل مكان. صديقة الشعب، تسعى إلى مدارس حرة، وصحافة حرة، وحكومة حرة، وإلغاء العبودية والحرب والرذيلة، وتحسين المجتمع. لا يمكننا، في الواقع، أن نثبت هنا أن المسيحية هي سبب هذه السمات الخاصة بالحياة الحديثة؛ لكننا نجدها مرتبطة بها في كل مكان، ولذا يمكننا القول إنها وحدها، من بين جميع أديان البشرية، كانت قادرة على مرافقة الإنسان في مسيرته من الشر إلى الخير، ومن الخير إلى الأفضل.

لقد أشرنا فقط إلى بعض النتائج التي قد تقودنا إليها دراسة اللاهوت المقارن. وستتضح هذه النتائج بشكل كامل مع تقدمنا في دراسة الأديان، ثم في مقارنتها. صُمم هذا الفصل التمهيدي ليكون بمثابة لمحة عامة عن مسار هذا العمل. وعندما ننتهي من استعراضنا، ستكون النتائج التي نأمل في الوصول إليها، إن وُفِّقنا فيما بدأناه، هي:

1 .جميع الأديان الكبرى في العالم، باستثناء المسيحية والإسلام، هي أديان عرقية، أي أديان تقتصر على أمة أو عرق واحد. المسيحية وحدها (بما فيها الإسلام واليهودية، وهما شكلان مؤقتان ومحليان لها) هي دين جميع الأعراق.

2 .لكل دين عرقي جانب إيجابي وجانب سلبي. الجانب الإيجابي هو ما يحمل حقيقة جوهرية؛ أما الجانب السلبي فهو غياب حقيقة جوهرية أخرى. كل دين من هذه الأديان صحيح ومُختار بعناية إلهية، ولكنه محدود وناقص.

3 .المسيحية وحدها هي كمال الحق، لم تأتِ لتُهدم الديانات السابقة بل لتُكمّلها؛ فهي قادرة على أن تحل محلها بتعليمها كل الحق الذي علّمته، واستكمال ما أغفلته.

4. المسيحية، لكونها ليست نظامًا بل حياة، وليست عقيدة أو شكلًا بل روحًا، فهي قادرة على تلبية جميع احتياجات الحضارة المتغيرة من خلال التطورات والتكيفات الجديدة، مُغذيةً حياة الإنسان في جوهرها باستمرار بتجديد الإيمان بالله والإيمان بالإنسان.

# الفصل الثاني

## 1.§خصائص الحضارة الصينية.

عندما نصف العقل الصيني بأنه نثري، ونسمي كتابات كونفوشيوس وخلفائه نثرًا، فإننا لا نقصد أي انتقاص من أي منهما. فالنثر لا يقل شأنًا عن الشعر. ولكننا نهدف إلى توضيح المنظور الذي ينبغي من خلاله دراسة المعلمين الصينيين. فقد اعتدنا أن ننظر إلى الشرق على أنه أرض الخيال؛ إذ قرأنا في طفولتنا قصصًا رومانسية جامحة من الجزيرة العربية؛ وانتقلنا، في شعر بلاد فارس، إلى جو من الأغاني الرقيقة والساحرة؛ ثم، عندما توغلنا شرقًا إلى الهند، حيث صادفنا الملاحم العظيمة للمهابهاراتا والرامايانا؛ - قد نتوقع بطبيعة الحال أن نجد في الصين البعيدة مزيدًا من الإبداع الجامح للإلهام الآسيوي. لكن الأمر ليس كذلك على الإطلاق. فنحن ننتقل فجأة من الرومانسية الجامحة إلى نثر باهت. يأتي إلينا عرق آخر، يبدو أنه لا صلة له بآسيا، كما اعتدنا أن نتصورها. لا مزيد من الطموحات، ولا مزيد من الخيالات الجامحة، بل عبادة النظام، واللياقة، والأدب، والأمور البسيطة الهادئة. وكما الشعب، كذلك الكهنة. إن مؤلفات كونفوشيوس وشُرّاحه تتسم بالاتزان والوضوح، تمامًا كوادي نهرهم العظيم، نهر اليانغتسي، الذي يرتفع مده لمسافة أربعمائة ميل. كل ما في هذه الكتابات هادئ، جاد، وأخلاقي. إنهم يفترضون أن جميع الناس يرغبون في التحسن، وسيبذلون الجهد لمعرفة كيف يمكنهم ذلك. لا يرون ضرورة لإغرائهم بالخير من خلال جاذبية البلاغة، أو سحر الصور، أو سحر الذكاء اللامع. هؤلاء الفلاسفة لهم أسلوب الكويكرز، لباس بسيط رتيب، يُستخدم فقط لتغليف الفكر، لا لتزيينه.

وبالتأكيد، لا ينبغي لنا أن نطلب أي جاذبية أخرى غير الموضوع نفسه، لنجد اهتمامًا بالصين ومعلميها. تبلغ مساحة الإمبراطورية الصينية أكثر من خمسة ملايين ميل مربع، أي ضعف مساحة الولايات المتحدة، ويبلغ عدد سكانها خمسمئة مليون نسمة، أي نصف عدد سكان العالم. أما الصين نفسها، التي يسكنها الصينيون، فتبلغ مساحتها نصف مساحة أوروبا، ويبلغ عدد

سكانها حوالي ثلاثمئة وستين مليون نسمة. تضم الصين ثماني عشرة مقاطعة، يفوق عدد سكان العديد منها، منفردة، عدد سكان بعض الدول الأوروبية الكبرى. لكن هذه الأمة مثيرة للاهتمام للغاية من نواحٍ أخرى كثيرة.

تُعدّ الصين مثالاً للثبات في العالم. والقول بأنها أقدم من أي أمة أخرى موجودة لا يُوفيها حقها. سافر هيرودوت، الذي يُلقب بأبي التاريخ، إلى مصر حوالي عام 450 قبل الميلاد، ودرس آثارها التي تحمل أسماء ملوك عاشوا في زمن بعيد عن زمنه، كما هو الحال مع زمننا، وهي آثار كانت حتى آنذاك تنتمي إلى عصور قديمة. لكن من المحتمل أن يكون الملوك الذين شيدوا تلك الآثار قد سكنوا بعد مؤسسي الإمبراطورية الصينية. عُثر في تلك المقابر القديمة على أوانٍ خزفية تحمل شعارات صينية، تتطابق في شكلها ومادتها ومظهرها تمامًا مع تلك المصنوعة في الصين اليوم؛ ويعتقد روسيليني أنها استُوردت من الصين على يد ملوك معاصرين لموسى أو قبله. لقد صمدت هذه الأمة ومؤسساتها أمام كل شيء. فقد قامت ممالك باكتريا وآشور القديمة، والملكية الفارسية، واليونان وروما، وازدهرت ثم سقطت، بينما لا تزال الصين على حالها. تغيرت السلالة الحاكمة من حين لآخر، لكن القوانين والعادات والمؤسسات، وكل ما يُشكّل الحياة الوطنية، بقيت كما هي. يبدأ التاريخ الأصيل للصين قبل الميلاد بألفي عام تقريبًا، وألف عام في هذا التاريخ تُعادل قرنًا في تاريخ أي شعب آخر. وقد حافظت اللغة الشفوية في الصين على حالها منذ ثلاثين قرنًا. بُني سور الصين العظيم، الذي يُحيط بالإمبراطورية من الشمال، بطول ألف ومائتين وأربعين ميلاً وارتفاع عشرين قدماً، مع أبراجٍ كل بضع مئات من الأمتار، ويعبر سلاسل الجبال، وينحدر إلى الوديان، ويمتد فوق الأنهار على أقواس، قبل مئتي عام من الميلاد، على الأرجح لصدّ تلك القبائل الشرسة التي، بعد محاولاتٍ فاشلة لغزو الصين، اتجهت غرباً حتى ظهرت على حدود أوروبا بعد خمسمئة عام، وساهمت، تحت اسم الهون، في سقوط الإمبراطورية الرومانية. كانت الصين بأكملها مُغطاة بالقنوات في فترةٍ لم تكن فيها قنواتٌ موجودة في أوروبا. القناة الكبرى، مثل سور الصين العظيم، لا مثيل لها بين جميع الأعمال القائمة. يبلغ طولها ضعف طول قناة إيري،

ويتراوح عرضها بين مئتي وألف قدم، ولها ضفافٌ ضخمة مبنية من الجرانيت الصلب على امتداد جزءٍ كبيرٍ من مسارها. ومن أهم الاختراعات الميكانيكية في أوروبا الحديثة البئر الارتوازية. كان يُعتقد لفترة طويلة أن البئر التي حُفرت في غرينيل بفرنسا هي الأعمق في العالم، حيث يصل عمقها إلى 1800 قدم. وقد حُفرت بئر أخرى في سانت لويس بالولايات المتحدة إلى عمق، كما ذُكر مؤخرًا، يبلغ حوالي 4000 قدم.<sup>9</sup> أما في الصين، فتوجد عشرات الآلاف من هذه الآبار، حُفرت في فترات زمنية بعيدة جدًا للحصول على الماء المالح. وقد تم اعتماد الطريقة التي استخدمها الصينيون منذ القدم مؤخرًا بدلاً من طريقتنا، لكونها الأبسط والأكثر اقتصادية. عرف الصينيون منذ القدم الدورة الدموية؛ وقاموا بالتطعيم ضد الجدري في القرن التاسع؛ وفي نفس الفترة تقريبًا اخترعوا الطباعة. صُنعت عملتهم البرونزية في وقت مبكر يعود إلى عام 1100 قبل الميلاد، ولم يتغير شكلها منذ بداية العصر المسيحي. وصلت البوصلة البحرية والبارود وفن الطباعة إلى أوروبا من خلال قصص المبشرين العائدين من آسيا. هؤلاء المبشرون، الذين كانوا يبحرون على متن سفن صينية تقليدية (جونك) على سواحل الإمبراطورية الصينية، شاهدوا صندوقًا صغيرًا يحتوي على إبرة ممغنطة، تُسمى تينغ نان تشن، أو "الإبرة التي تشير إلى الجنوب". كما لاحظوا آلات رهيبة استخدمتها الجيوش في الصين تُسمى هو باو، أو البنادق النارية، والتي كان يُوضع فيها مسحوق قابل للاشتعال، يُصدر صوتًا كالرعد ويقذف الحجارة وقطع الحديد بقوة هائلة.

يقول الأب هيو في كتابه "المسيحية في الصين": "لم يكن الأوروبيون الذين توغلوا في الصين أقل انبهارًا بمكتبات الصينيين من انبهارهم بمدفعيتهم. فقد ذُهلوا لرؤية الكتب الأنيقة المطبوعة بسرعة على ورق ناعم حريري باستخدام قوالب خشبية. ظهرت الطبعة الأولى من الأعمال الكلاسيكية المطبوعة في الصين عام 958، أي قبل خمسمائة عام من اختراع غوتنبرغ. لا شك أن المبشرين كانوا منشغلين في أديرتهم بالعمل الشاق المتمثل في نسخ الكتب المخطوطة، ولا بد أن طريقة الطباعة الصينية البسيطة قد لفتت انتباههم بشكل خاص. وقد لُوحظت العديد من المنتجات الرائعة الأخرى، مثل الحرير والخزف وأوراق اللعب والنظارات وغيرها من

المنتجات الفنية والصناعية غير المعروفة في أوروبا. وقد جلبوا هذه الأفكار الجديدة إلى أوروبا؛ ومنذ ذلك الحين، كما يقول أبيل ريموسات، بدأ الغرب يُكنّ التقدير اللائق لأجمل مناطق العالم وأكثرها اكتظاظًا بالسكان وأقدمها تحضرًا. الفنون، والدين دُرست معتقدات شعبها ولغاتهم، بل واقتُرح إنشاء كرسي أستاذية للغة التتارية في جامعة باريس. بدا العالم وكأنه ينفتح نحو الشرق؛ فقد حققت الجغرافيا تقدماً هائلاً، وفتح شغف الاكتشاف آفاقاً جديدة لروح المغامرة لدى الأوروبيين. ومع ازدياد معرفتنا بنصف الكرة الأرضية، لم تعد فكرة وجود نصف آخر تبدو مفارقة مستحيلة؛ وفي سعيه وراء زيبانغون ماركو بولو، اكتشف كريستوفر كولومبوس العالم الجديد.

يُثير أول ما يقع عليه النظر في الصين ذلك الانطباع الذي نسميه بالغرابة. والسبب في ذلك ببساطة هو أن عادات هذه الأمة الفريدة تُخالف عاداتنا تماماً. فهم يبدون، من الناحية الأخلاقية، كما من الناحية الجسدية، نقيضنا. عاداتهم تُخالف عاداتنا تماماً كما تُخالف اتجاهات أجسادهم. نحن نقف جنباً إلى جنب في كل شيء. عند استخدام البوصلة، يقولون "غرب شمال" بدلًا من "شمال غرب"، و"شرق جنوب" بدلًا من "جنوب شرق"، وتشير إبرة بوصلتهم إلى الجنوب بدلًا من الشمال. يرتدي جنودهم تنانير مبطنة، وأحذية من الساتان، وقلائد من الخرز، ويحملون المظلات والمراوح، ويخرجون للهجوم الليلي حاملين الفوانيس، إذ يخشون الظلام أكثر من خشيتهم من التعرض للعدو. يعشق الشعب الألعاب النارية، لكنهم يفضلون إطلاقها نهارًا. تركب السيدات عربات اليد، وتُساق الأبقار في عربات تجرها الخيول. بينما في أوروبا تُقيد الأقدام في الأغلال، في الصين تُعلق الأغلال حول الرقبة. في الصين، يُذكر اسم العائلة أولًا، ثم الاسم الشخصي. فبدلًا من قول بنجامين فرانكلين أو والتر سكوت، يقولون فرانكلين بنجامين، سكوت والتر. وهكذا، فإن الاسم الصيني لكونفوشيوس، كونغ فو تسي، يعني المعلم المقدس كونغ؛ كونغ هو اسم العائلة. في الحروب الأخيرة مع الإنجليز، كان بعض الموظفين أو الجنود يفرون، ثم ينتحرون لتجنب العقاب. عند ركوب الخيل، يجلس الصينيون على الجانب الأيمن. يطير شيوخهم الطائرات الورقية، بينما يراقبهم الصبية الصغار. اليد اليسرى

هي موضع الشرف، ووضع القبعة عليها علامة احترام. بطاقات الزيارة مطلية باللون الأحمر، ويبلغ طولها أربعة أقدام. يعتقد الصينيون أن المعدة هي مركز الفهم. لديهم قرى يبلغ عدد سكانها مليون نسمة. يجر الرجال قواربهم، بينما تُحرّك عرباتهم بالأشرعة. المرأة المتزوجة في شبابها وجمالها تُعتبر عبدة، ولكن عندما تتقدم في السن وتضعف، تصبح أقوى شخص وأكثرهم احترامًا ومحبة في العائلة. يُنظر إلى الإمبراطور بأقصى درجات التبجيل، لكن الإمبراطورة الأم أعظم منه مكانة. عندما يُؤثث الرجل منزله، فبدلاً من التركيز، كما نفعل، على البيانو المصنوع من خشب الورد والخشب الماهوجني المنحوت، فإن طموحه الأول هو الحصول على نعش جميل من خشب الكافور، يحتفظ به في أفضل مكان في غرفته. إن فائدة المال هي ستة وثلاثون بالمائة، والتي، بالتأكيد، ندفعها أيضًا في في أوقات عصيبة، يكافحون لتجنب التوقف، بينما عندهم يكون السعر هو السعر القانوني. سمعنا ذات مرة وصفًا لعشاء سيئ على النحو التالي: "كان اللحم باردًا، والنبيذ ساخنًا، وكل شيء حامض ما عدا الخل". هذا لن يزعج الصينيين كثيرًا، فهم يُدفئون نبيذهم بعناية، بينما نُثلّجه نحن. إنهم يُدركون معنى الحياة الرغيدة جيدًا، وهم ذوّاقون كبار، بل وذوّاقون إلى حد ما، فبعد تناول ثلاثين طبقًا، قد يأكلون بطة كخاتمة. يُلقون لحمهم في أفواههم على أنغام لحن، كل رجل يُحافظ على الإيقاع بعيدانه، بينما نحن، على العكس، لا نُصدر أي تناغم مع قرع سكاكيننا وشوكاتنا. لن يشرب الصيني قطرة حليب، لكنه يلتهم أعشاش الطيور والقواقع وزعانف أسماك القرش بشهية كبيرة. لون حدادنا أسود ولون حدادهم أبيض؛ يحزنون على والديهم ثلاث سنوات، ونحن فترة أقصر بكثير. تُسمى الغرفة الرئيسية في منازلهم "قاعة الأجداد"، حيث تُوضع صورهم أو ألواحهم على الجدار، ويُقدّسونها؛ أما نحن، فنميل إلى وضع صورة جدنا في العلية<sup>10</sup>.

**.2 §الحكومة الصينية القائمة على التعليم. امتحانات الخدمة المدنية.**

هذه بعض الاختلافات الظاهرية بين العادات الصينية وعاداتنا. لكن السمة الأبرز لهذه الأمة هي القيمة العالية التي تُوليها للمعرفة، والجوائز والتكريمات التي تُمنح للعلم. تُمنح جميع

المناصب المدنية في الإمبراطورية مكافأةً على الجدارة الأدبية. تُوصف الحكومة، في الواقع، بأنها استبدادية تمامًا، ويُقال إن للإمبراطور سلطة مطلقة. هو غير مُلزم بأي دستور مكتوب، لكن الرأي العام في البلاد يُحمّله، مع ذلك، مسؤولية صارمة. هو، شأنه شأن شعبه، مُلزم بقانون أسمى من أي إرادة فردية، ألا وهو قانون العرف. ففي الصين، أكثر من أي مكان آخر، "ما يشيب مع مرور الزمن يصبح ديناً". سلطة الإمبراطور هي ببساطة سلطة الحكم وفقاً للعادات والتقاليد القديمة للبلاد، وكلما انتُهكت هذه العادات والتقاليد باستمرار، تندلع ثورة وتُغيّر السلالة الحاكمة. لكن الثورة في الصين لا تُغيّر شيئاً سوى شخص الملك؛ إذ يبقى الدستور غير المكتوب للعادات والتقاليد القديمة ساري المفعول بالكامل. يقول دو هالدي: "من المبادئ القديمة قدم الملكية نفسها، أن الدولة بمثابة عائلة كبيرة، والإمبراطور هو بمثابة الأب والأم معاً. عليه أن يحكم شعبه بمودة ورحمة؛ عليه أن يهتم بأدق الأمور التي تُعنى بسعادتهم. عندما لا يُفترض به أن يُظهر هذا الشعور، سرعان ما يفقد احترام الشعب له، ويصبح عرشه غير آمن". لذلك، يسعى الإمبراطور دائماً إلى دراسة كيفية الحفاظ على هذه السمعة. عندما تُصاب إحدى المقاطعات بمجاعة أو فيضان أو أي كارثة أخرى، يعتزل حاكمها في قصره، ويصوم، ويصدر مراسيم لإعفائها من الضرائب وتقديم العون لها.

تكمن القوة الحقيقية للحكومة في الطبقة الأدبية. فالحكومة، وإن كانت اسميًا ملكية، إلا أنها في الواقع أرستقراطية. لكنها ليست أرستقراطية نسب، كما هو الحال في إنجلترا، إذ يمكن لابن أفقر رجل أن يحظى بمكانة فيها؛ وليست أرستقراطية ثروة، كما هو الحال في الولايات المتحدة، ولا أرستقراطية عسكرية، كما هو الحال في روسيا، ولا أرستقراطية كهنوتية، كما هو الحال في مصر القديمة، وبعض الدول الحديثة، مثل باراغواي تحت حكم اليسوعيين، أو جزر ساندويتش تحت حكم المبشرين البروتستانت؛ بل هي أرستقراطية أدبية.

يُطلق على الموظفين المدنيين في الصين اسم "الماندرين". يتم اختيارهم من بين ثلاث درجات علمية، وهي: البكالوريوس، والليسانس، والدكتوراه. يحق لجميع الأشخاص الترشح للدرجة الأولى، باستثناء ثلاث فئات مستثناة: البحارة، والحلاقون، والممثلون. يخضع المرشحون

لاختبارات من قبل حكام مدنهم. ومن بين المقبولين، يتم اختيار عدد قليل بعد اجتياز اختبار آخر. يخضع هؤلاء لاختبار آخر من قبل مسؤول يقوم بجولة كل ثلاث سنوات لهذا الغرض. يُوضع المرشحون منفردين في غرف أو خزائن صغيرة، مع أقلام رصاص وحبر وورق، ويُعطى لهم موضوع للكتابة عنه. من بين حوالي 400 مرشح، يتم اختيار 15 مرشحًا، يحصلون على الدرجة الأدنى. هناك اختبار آخر يُجرى كل ثلاث سنوات للدرجة الثانية، يُرقى فيه عدد قليل من حاملي البكالوريوس. يُعقد اختبار الدرجة الأعلى، وهي الدكتوراه، في بكين فقط، حيث يُختار حوالي 300 مرشح من بين 5000. هؤلاء مؤهلون لتولي أعلى المناصب. عند وجود شاغر، يتم اختيار أحد الحاصلين على درجة علمية بالقرعة من بين الأسماء القليلة ذات الخبرة. لكن قبل بضع سنوات، كان هناك خمسة آلاف من أصحاب أعلى رتبة، وسبعة وعشرون ألفًا من أصحاب الرتبة الثانية، لم يحصلوا على وظائف.

وبالتالي، فإن المواد التي يُختبر فيها المرشحون، وأساليب هذه الاختبارات، تُحدد.

ورد ذكره في تقويم شانغهاي (1852).11

تُعقد امتحانات درجة كيوجين (أو الإجازة) في المدينة الرئيسية لكل مقاطعة مرة كل ثلاث سنوات. يبلغ متوسط عدد الحاصلين على درجة البكالوريوس في مقاطعة كينغنان الكبيرة (التي يبلغ عدد سكانها سبعين مليون نسمة) عشرين ألفًا، لا ينجح منهم سوى حوالي مئتي شخص. يُنتدب خمسة وستون مسؤولًا حكوميًا لهذا الامتحان، بالإضافة إلى الموظفين الأدنى رتبة. ويُرسل كبيرَا الممتحنين من بكين. عند دخول المرشحين قاعة الامتحان، يُفتشون بحثًا عن كتب أو مخطوطات قد تساعدهم في كتابة مقالاتهم. هذا الإجراء الاحترازي ليس زائدًا عن الحاجة، فقد وُضعت العديد من الحيل لتمكين الأشخاص ذوي القدرات المتوسطة من النجاح. أحيانًا يُدس كتاب رقيق، مطبوع بحروف صغيرة جدًا من ألواح نحاسية، في ثقب في نعل الحذاء. لكن من يُكتشف أمره في مثل هذه الممارسات يُدمر حياته. في قائمة تضم مئة وأربعة وأربعين مرشحًا ناجحًا عام ١٨٥١، كان ثلاثة عشر منهم فوق الأربعين، وواحد دون الرابعة

عشرة؛ وسبعة دون العشرين؛ وكان على جميعهم، للنجاح، أن يحفظوا الكتب المقدسة عن ظهر قلب، إلى جانب إلمامهم الواسع بالتاريخ.

تُطرح ثلاث مجموعات من المواضيع، تستغرق كل منها يومين وليلة، ولا يُسمح لأحد بمغادرة غرفته، التي بالكاد تتسع للنوم، حتى انقضاء هذه المدة. يجب ألا تتجاوز المقالات سبعمئة حرف، ولا يُسمح بالمحو أو التصحيح. في الأيام الأولى، تُستقى المواضيع من الكتب الأربعة؛ وفي اليوم التالي، من الكلاسيكيات القديمة؛ وفي اليوم الأخير، تُطرح أسئلة متنوعة. ومن أمثلة هذه المواضيع: "استعان تشوتسي، في تعليقه على كتاب شو-كينغ، بأربعة مؤلفين، بعضهم يُسهب في الكلام، وبعضهم يُقصر؛ وبعض تفسيراتهم مُتكلفة، وبعضها مُنمّق. ما ملاحظاتك عليهم؟" كان لدى تشينشو قدرات عظيمة في الكتابة التاريخية. في كتابه "الممالك الثلاث"، قلل من شأن تشو كو ليانغ، وسخر من إي وإي، وهما شخصيتان مشهورتان أخريان. فماذا يقول عنهما؟

تُجرى هذه الامتحانات للخدمة العامة بأقصى درجات الحيادية. أُنشئت قبل ألف عام تقريبًا، وجرى تحسينها تدريجيًا على مرّ الزمن. وهي تُشكّل أساس نظام الحكم الصيني برمّته. تجعل هذه الامتحانات التعليم الجيد مرغوبًا فيه لدى الجميع، إذ يُمكن لأفقر رجل أن يرى ابنه يرتقي إلى أعلى المناصب. يُلزم مئات الآلاف ممن يستعدون للمنافسة بمعرفة نظام كونفوشيوس بأكمله، وحفظ جميع تعاليمه الأخلاقية، والإلمام بالحكمة التقليدية للبلاد. وهكذا، يتجدد باستمرار الرأي العام المؤيد للمؤسسات القائمة والأفكار الأساسية للحكم الصيني.

يا له من مكسب عظيم لبلادنا لو تبنينا هذه المؤسسة الصينية! بدلاً من جعل المناصب جائزةً للوقاحة والإدارة السياسية والخدمة الحزبية، فلنجعلها مجالاً للتنافس بين كل من يرى نفسه مؤهلاً. ولنُمنح جميع المناصب التي تُمنح حالياً بالتعيين لمن يُظهرون جدارتهم التامة بأداء واجباتها. وبطبيعة الحال، سيتطلب كل نوع من المناصب نوعاً مختلفاً من الاختبارات.

فبعضها قد يتطلب لياقة بدنية إلى جانب القدرات الذهنية. أما الراغبون في العمل الدبلوماسي،

فينبغي أن يكونوا مُلِمّين باللغات الأجنبية والقانون الدولي. ويجب اختبار الجميع في دستور الولايات المتحدة وتاريخها. وينبغي أن يكون المرشحون لوظائف إدارة البريد مُتقنين للنسخ، وسريعي البديهة في الحساب، ومُلمين بمسك الدفاتر. صحيح أننا لا نستطيع من خلال الاختبارات أن نكتسب معرفةً مُحددة بالصفات الأخلاقية، ولكن الاجتهاد والدقة والإخلاص في العمل ستظهر جلياً. إن التحول من نظام التعيينات الحالي الفاسد والمُفسد إلى نظام الامتحانات التنافسية سيكون أكثر عدلاً لبلادنا الآن من أي إجراء إصلاحي آخر يُمكن اقتراحه. يعتقد العارفون أن ديمومة المؤسسات الصينية نابعة من نفوذ الطبقة الأدبية. فالأدب بطبيعته محافظ، ونبرة الأدب المدروس محافظة للغاية، وأكثر الرجال ذكاءً في الإمبراطورية لديهم مصلحة شخصية في استمرار هذه المؤسسات التي يطمحون من خلالها إلى تحقيق مكانة وثروة.

أرفع المناصب المدنية هي مقاعد في المحاكم أو المجالس الكبرى، ومناصب نواب الملك، أو حكام المقاطعات الثماني عشرة.

المجالس هي:

لي بو، مجلس تعيين الموظفين.

هو بو، مجلس المالية.

لي بو، مجلس المراسم.

بينغ بو، مجلس الحرب.

هينغ بو، مجلس العدالة الجنائية.

كونغ بو، مجلس الأشغال (القنوات والجسور، إلخ).

ويبلغ عدد أعضاء هذه المجالس، مع مستشاريهم ومرؤوسيهم، ألفًا ومائتي موظف. ثم هناك مجلس الأطباء في كلية هان لين، الذين لديهم تضمّ هذه الهيئة قسمًا كبيرًا من المحفوظات،

وتاريخ الإمبراطورية، وما إلى ذلك؛ ومجلس الرقابة، وهم أعلى الموظفين، ولهم منصبٌ خاص. فواجبهم هو التوسط بين الشعب والموظفين، وبين الشعب والإمبراطور، بل وتوبيخ الأخير إذا وجدوه مخطئًا. وهذا واجبٌ محفوفٌ بالمخاطر، ولكنه غالبًا ما يُؤدّى بإخلاص. فقد ذهب أحد الرقباء لإبلاغ الإمبراطور ببعض أخطائه، فأخذ نعشه معه، وتركه عند باب القصر. كما احتجّ رقيبان على إمبراطورٍ راحلٍ بشأن نفقات قصره، مُحدّدين المبالغ الطائلة التي أُنفقت بلا طائل على العطور والزهور لمحظياته، ومُشيرين إلى أنه يُمكن توفير مليون تيل من الفضة للفقراء عن طريق خفض هذه النفقات. واحتجّ سونغ، المفوض الذي كان يُرافق اللورد ماكارتني، على الإمبراطور كياكينغ بسبب ولعه بالممثلين وشرب الخمر، الأمر الذي أهانه في نظر الشعب. استشاط الإمبراطور غضبًا وسأله عن العقاب الذي يستحقه على وقاحته. فأجاب سونغ: "التقسيم إلى أربعة أجزاء". فقال الإمبراطور: "اختر عقابًا آخر". فقال سونغ: "دعني أُقطع رأسي". فقال الإمبراطور: "اختر عقابًا آخر". فطلب سونغ أن يُخنق. وفي اليوم التالي، عيّنه الإمبراطور حاكمًا لإحدى المقاطعات البعيدة، خوفًا من معاقبته على إخلاصه في أداء واجبه، ولكنه كان سعيدًا بوجوده بعيدًا. وتُروى العديد من هذه الحكايات، مما يدل على وجود قدر من الشجاعة الأخلاقية في الصين.

يتمتع حاكم المقاطعة، أو نائب الملك، بسلطة واسعة. ويُختار أيضًا من بين كبار الموظفين بالطريقة المذكورة. والقيود الوحيدة على سلطته هي: أنه مُلزم بتقديم تقرير كامل كل ثلاث سنوات عن شؤون المقاطعة، وأن يُبين فيه أخطاءه، وإذا أغفل أيًا منها، واكتُشفت بطرق أخرى، يُعاقب بالإهانة أو التشويه أو الموت. من حق أي رعية، مهما كانت رتبتها، أن يشكو للإمبراطور نفسه من أي مسؤول، مهما علا شأنه؛ ولهذا الغرض، وُضع طبل كبير عند إحدى بوابات القصر. من يقرعه تُفحص قضيته أمام الإمبراطور، فإن ثبت ظلمه، يُنصف، وإن كانت شكواه غير مبررة، يُعاقب بشدة. قد يصل زوار الإمبراطور، المُرسلون من قبل مجلس الرقابة، فجأة في أي وقت للتحقق من شؤون أي مقاطعة؛ ويُبلغ فورًا عن أي حاكم أو مسؤول عام يُضبط متلبسًا بالتعثر، ويُعاقب.

وهكذا بُنيت المؤسسات السياسية في الصين على الأدب. فالمعرفة سبيل إلى السلطة والثروة. كل مواهب الأمة ومعارفها مهتمة بدعم المؤسسات التي تمنحها السلطة أو الأمل فيها. وهذه المؤسسات تعمل بكفاءة. آلياتها بسيطة، لكنها تُنتج قدرًا هائلًا من السعادة والفضيلة الأسرية. بينما يعاني معظم سكان آسيا من قمع الطغاة الصغار، ويُنهكون بالضرائب، ولا يجدون دافعًا لتحسين أوضاعهم، إذ أن أي تقدم لن يزيدهم إلا عرضة للمزيد من الابتزاز، فإن شعب الصين مجتهد وسعيد. لم يبلغ التطور الزراعي في أي مكان آخر في العالم مثل هذا الكمال. فكل قطعة أرض في المناطق المزروعة من الإمبراطورية، باستثناء تلك المخصصة للآثار، تُنتج محصولين أو ثلاثة محاصيل سنويًا، بفضل العناية الفائقة التي تُبذل فيها. أما تقليد حرث الأرض في بداية العام، الذي يشرف عليه الإمبراطور، فقد نشأ قبل ألفي عام. المزارع صغيرة، لا تتجاوز مساحتها فدانًا أو فدانين، وتنتج كل أسرة في مزرعتها كل ما تستهلكه. يُزرع الحرير والقطن ويُصنعان في البيوت، حيث يقوم كل رجل بغزل ونسج وصبغ نسيجه بنفسه. أما في صناعة الخزف، فعلى النقيض من ذلك، يُطبّق تقسيم العمل على نطاق واسع. يُصنع أجودها في قرية كيانغسي، التي يبلغ عدد سكانها مليون نسمة. أحيانًا يُستعان بسبعين عاملًا لصنع كوب واحد. الصينيون بارعون جدًا في صناعة القرون والعاج. تُصنع الفوانيس الكبيرة من القرون، شفافة وخالية من العيوب. في برمنغهام، حاول رجالٌ باستخدام الآلات قطع العاج بنفس طريقة الصينيين، لكنهم فشلوا.

**الفقرة 3: حياة كونفوشيوس وشخصيته.**

كان كونفوشيوس المعلم الأعظم لهذه الأمة على مدى ثلاثة وعشرين قرنًا. وُلد عام 551 قبل الميلاد، وعاصر التاركوينيين وفيثاغورس وكورش. في عصره تقريبًا، عادت يهود بابل وغزو زركسيس لليونان. لطالما تمتع أحفاده بامتيازات كبيرة، ويبلغ عددهم الآن نحو أربعين ألفًا في الصين، يفصلهم سبعون جيلًا أو أكثر عن سلفهم العظيم. تُعد عائلته أقدم عائلة في العالم، إلا إذا اعتبرنا اليهود عائلة واحدة تنحدر من إبراهيم. إن تأثيره، من خلال كتاباته، على

عقول ملايين البشر يفوق تأثير أي إنسان عاش على الإطلاق، باستثناء كتّاب الكتاب المقدس؛ وفي قولنا هذا، لا ننسى أسماء محمد وأرسطو والقديس أوغسطين ولوثر.

كما نرى، فإن تأثير كونفوشيوس هو الذي حافظ، وإن لم يكن قد نشأ في الصين، على ذلك التبجيل العميق للوالدين، وتلك الروابط الأسرية القوية، وحب النظام، وتقدير المعرفة، واحترام الأدباء، وهي مبادئ أساسية تقوم عليها جميع المؤسسات الصينية. لقد مارس نظامه الأخلاقي الدقيق والعملي، الذي يدرسه جميع العلماء، والذي يشكل خلاصة المعرفة ومبدأ الحكم في الصين، ولا يزال يمارس تأثيرًا على عدد لا يحصى من الناس، تأثيرًا يصعب تقديره، ولكنه يدفعنا إلى الإعجاب بالقوة التي يمكن أن تنبعث من روح واحدة.

إن ممارسة مثل هذا التأثير تتطلب عظمة. إذا كان يُقاس أثر الشجرة بثمارها، فلا بد أن كونفوشيوس كان أحد أبرز عقول البشرية. إن افتراض أن رجلاً ذا أخلاق متدنية أو ذكاء محدود، أو دجالًا أو متحمسًا بشكل مفرط، قادر على التأثير في العالم، هو نظرية تُسيء إلى الطبيعة البشرية. لقد ولّى زمن هذه النظريات، ولله الحمد. نعلم الآن أنه لا شيء ينشأ من العدم، وأن نار القش قد تُشعل لهيبًا ساطعًا، لكنها سرعان ما تنطفئ. فالنور الذي يُنير القرون ليس مجرد وميض عابر. لذا، ينبغي أن نتعامل مع كونفوشيوس باحترام، ونتوقع أن نجد في كتاباته خيرًا وحكمة. إن روح المحبة وحدها هي التي تُمكننا من تجاوز الصعوبات التي تُحيط بدراسته، وإدراك شيء من عبقرية الرجل وتعاليمه. ولأنه لا يوجد خطر مباشر من أن نصبح من أتباعه، فلا نرى مانعًا من هذا المسلك، الذي يبدو أيضًا نوعًا من الضيافة الفكرية، مُنسجمًا تمامًا مع روح معلمنا.

ينتمي كونفوشيوس إلى تلك النخبة القليلة التي كرست حياتها للارتقاء الأخلاقي ببني البشر. وهو يتبوأ مكانة رفيعة بينهم، إذ سعى إلى غرس أنقى مبادئ الدين والأخلاق في نفوس الناس، ونجح في ذلك. ولبيان هذا الهدف، لا بد من تقديم نبذة موجزة عن حياته.

كان أسلافه من كبار رجال الدولة والجنود في مملكة لو الصغيرة، التي كانت آنذاك مملكة مستقلة، وهي الآن مقاطعة صينية. وُلد في العام الذي تُوّج فيه كورش ملكًا على بلاد فارس. توفي والده، أحد كبار ضباط المملكة وجندي شجاع، عندما كان كونفوشيوس في الثالثة من عمره. كان كونفوشيوس فتىً مُجتهدًا، وفي الخامسة عشرة من عمره كان قد درس الكتب الخمسة المقدسة المعروفة باسم "الملوك". تزوج في التاسعة عشرة من عمره، ورُزق بابن واحد من زوجته الوحيدة. توفي هذا الابن قبل كونفوشيوس، تاركًا له حفيدًا واحدًا، انحدر منه الكثير من أحفاده الموجودين اليوم في الصين. كان هذا الحفيد ثانيًا في الحكمة بعد كونفوشيوس، وكان معلمًا للفيلسوف الشهير منسيوس.

أمضى كونفوشيوس الجزء الأول من حياته في محاولة إصلاح آفات المجتمع من خلال المناصب الرسمية التي شغلها، ونفوذه لدى الأمراء، وسفره وتواصله مع الناس. كانت الفترة الثانية هي تلك التي استُدعي فيها من أسفاره ليصبح وزيرًا في موطنه، مملكة لو. وهناك طبّق نظرياته في الحكم، واختبر جدواها. كان حينها في الخمسين من عمره. وسرعان ما تجلّى نجاحه في ازدهار الشعب. فبدلًا من الاستبداد الذي كان سائدًا، أصبحوا يُحكمون وفقًا لرؤيته للحكم الرشيد، ألا وهي رؤية رب الأسرة. وعادت الثقة إلى عامة الناس، وتبع ذلك كل خير. لكن جذوره لم تكن راسخة بما يكفي لمقاومة تقلبات الزمن، فانقلبت جميع ترتيباته الحكيمة رأسًا على عقب بسبب نزوات الملك، الذي سئم من فضيلة كونفوشيوس الصارمة، وانغمس فجأة في حياة اللهو والترف. فاستقال كونفوشيوس من منصبه، وعاد إلى الترحال، لكن بدافع جديد. فبعد أن كان يسافر ليتعلم، أصبح الآن يسافر ليعلّم. جمع حوله أتباعًا، ولم يعد يسعى لنيل استحسان الأمراء، بل نشر أفكاره بين عامة الناس عن طريقهم، فأرسلهم إلى كل مكان لنشر تعاليمه. وهكذا، وسط تقلبات الحياة، عاش حتى بلغ الثالثة والسبعين من عمره. وفي أواخر حياته، انشغل بنشر مؤلفاته وتحرير الكتب المقدسة. وقد ازداد عدد أتباعه بشكل كبير، إذ يقدرهم المؤرخون بثلاثة آلاف، منهم خمسمائة وصلوا إلى مناصب رسمية، واثنان وسبعون تعمّقوا في منهجه، وعشرة من أرفع مراتب العقل والشخصية، كانوا ملازمين له باستمرار.

وكان هوي يُقدّر هؤلاء تقديرًا خاصًا، لبلوغه فضيلة عظيمة في سن مبكرة. وكان كثيرًا ما يشير إليه في أحاديثه. قال: "رأيته يتقدم باستمرار، لكنني لم أره يتوقف قط في طريق المعرفة". ويقول أيضًا: "أحكم أتباعي، إذ... يفهم فكرة واحدة، ويفهم فكرتين. "هووي، من يمتلك واحدًا يفهم عشرة." كان أحد التلاميذ العشرة المختارين، تسي لو، متهورًا ومندفعًا كالرسول بطرس. وكان آخر، تسي كونغ، محبًا وحنونًا كالرسول يوحنا؛ بنى بيتًا قرب قبر كونفوشيوس، ليحزن عليه بعد وفاته.

كرّس كونفوشيوس السنوات الأخيرة من حياته لتحرير الكتب المقدسة، أو كتب الملوك. وهي التي بين أيدينا اليوم من تأليفه. تمتد السجلات التاريخية الصينية الموثوقة إلى عام 2357 قبل الميلاد، بينما نشأت الفلسفة الصينية على يد فو هي، الذي عاش حوالي عام 3327 قبل الميلاد. وهو من استبدل الكتابة بالخيوط المعقودة التي كانت الوسيلة الوحيدة للتدوين. وهو أيضًا مؤلف الرسوم البيانية الثمانية، التي يتكون كل منها من ثلاثة خطوط، نصفها كامل ونصفها الآخر منقسم إلى قسمين، والتي يُفترض أنها، بتراكيبها المختلفة، تُمثل المبادئ الفاعلة والمنفعلة للكون في جميع أشكالها الأساسية. كونفوشيوس قام بتحرير كتاب "يي كينغ"، و"شو كينغ"، و"شي كينغ"، و"لي كي"، التي تُشكّل مجمل الأدب الصيني القديم الذي وصل إلينا <sup>1</sup>.لم يكتب كونفوشيوس الكتب الأربعة، التي تضمّ تعاليمه ومذهبه، بنفسه، بل قام بتأليفها آخرون بعد وفاته.

يُسمى أحد هذه الكتب "الوسط الثابت"، وهدفه إظهار أن الفضيلة تكمن في تجنّب التطرف. أما كتاب "لون يو"، أو "الأقوال المختارة"، فيحتوي على حوارات كونفوشيوس، ويُشبه إلى حدٍ ما كتاب "مذكرات زينوفون" وكتاب "حياة جونسون" لبوزويل<sup>12</sup>.

وهكذا، كرّس كونفوشيوس حياته لنقل بعض المبادئ الأخلاقية والدينية العظيمة إلى الأمة الصينية، والتي اعتقد أنها ستضمن سعادة الشعب. ويظهر تفانيه في هذا الهدف جليًّا في كتاباته، حيث يقول:

"في الخامسة عشرة من عمري، كنتُ أتوق إلى الحكمة." في الثلاثين من عمري، انصبّ اهتمامي على طلب العلم. في الأربعين، تجلّت لي مبادئ راسخة. في الخمسين، فهمت الحكمة السماوية. في الستين، فهمت كل ما سمعته بسهولة. في السبعين، لم تعد رغبات قلبي تخالف القانون.

"إذا سمعتُ في الصباح عن الطريق القويم، ومتُّ في المساء، فسأكون سعيدًا".

يقول عن نفسه: "إنه رجلٌ ينغمس في طلب العلم حتى ينسى طعامه، وفي غمرة فرحه باكتشافه يفقد إحساسه بتعبه، فيغفل عن بلوغه الشيخوخة".

ويقول أيضًا: "الأرز الخشن طعامًا، والماء شرابًا، والذراع المثنية وسادةً، - يمكن التمتع بالسعادة حتى مع هذه الأشياء؛ ولكن بدون فضيلة، تبدو لي الثروة والشرف كغيمة عابرة".

"لا تحزن لأن الناس لا يعرفونك؛ "تحزن لأنك لا تعرف الناس".

"الحكم بالعدل كالنجم القطبي، ثابتٌ تدور حوله كل الأشياء الأخرى".

"جوهر المعرفة هو امتلاكها وتطبيقها، وعدم امتلاكها هو الاعتراف بالجهل".

"اعبد كأن الله حاضر".

"إذا لم يكن ذهني منشغلاً بالعبادة، فكأنني لم أعبد".

"في السابق، كنت أسمع الناس وأصدقهم في سلوكهم، أما الآن فأسمعهم وأراقب سلوكهم".

"حياة الإنسان مرهونة بالفضيلة، فإن عاش الشرير فبفضل الحظ فقط".

"بعضهم ينطلق في العمل دون علم، أما أنا فأستمع كثيراً وأختار أفضل السبل".

ذُكر عليه ذات مرة، وهو في منصبه، لعدم معارضته زواج حاكم من قريبة بعيدة، وهو ما يُعد مخالفة للعادات والتقاليد الصينية. فقال: "أنا رجل سعيد؛ إذا كان لي عيب، يلاحظه الناس.

كان كونفوشيوس متواضعًا. قال: "لا أطيق أن يُقال عني مساويًا للحكماء والأخيار. كل ما يُقال عني هو أنني أدرس سلوك الحكماء بشغف، وأُعلّم الناس إياه دون ملل".

قال: "الرجل الصالح هادئ، والشرير دائمًا خائف".

"الرجل الصالح يهتم بالأصل؛ يُثبّت الأصل، وكل شيء آخر ينبثق منه. الأصل هو بر الوالدين؛ والثمرة هي المحبة الأخوية".

"قد يكون هناك كلام معسول ووجه متواضع مع قلة الفضيلة الحقيقية".

"أُقيّم نفسي يوميًا بثلاث طرق: في تعاملي مع الناس، هل أنا مستقيم؟ في علاقتي مع الأصدقاء، هل أنا وفيّ؟ وهل أُجسّد تعاليم سيدي في سلوكي؟

"الوفاء والإخلاص أسمى الصفات".

"إذا أخطأت، فلا تخشَ العقاب".

"تعلم الماضي لتعرف المستقبل".

كانت المبادئ العظيمة التي علّمها مبنية أساسًا على المحبة الأسرية والواجب. علّم الملوك أن يعاملوا رعاياهم كالأطفال، وأن يحترم الرعايا الملوك كآباء؛ وقد تغلغلت هذه الأفكار في الوعي الجمعي، حتى بات الأباطرة مُجبرين على التظاهر بالحكم على هذا النحو، حتى وإن لم يرغبوا بذلك. كان كونفوشيوس مُعلّمًا للتبجيل - تبجيل الله، واحترام الوالدين، واحترام الماضي وإرثه، واحترام عظماء الماضي وأفكاره العظيمة. كما علّم الناس أن ينظروا إلى بعضهم كإخوة، بل وحتى تُلاحظ في كتاباته آثار القاعدة القديمة، بصورتها السلبية إن لم تكن الإيجابية.

ومن المثير للاهتمام أن هذا المعلم المُبجّل تميّز بوجود نتوء بارز على رأسه، حيث وضع علماء فراسة الدماغ عضو التبجيل <sup>13</sup>.كان هذا العنصر من العبادة، المتجذر في تنظيمه والمعزز بقناعاته الراسخة، بمثابة تاج الطبيعة الأخلاقية للإنسان. ولكن، على

الرغم من امتلاء قلبه بالتبجيل، يبدو أنه كان يفتقر إلى فهم الأمور الروحية. لم يكن يعرف إلهًا شخصيًا؛ لذا لم تكن عبادته موجهة إلى الله، بل إلى القدماء، والأجداد، والآداب والعادات، والدولة بوصفها الأب والأم لرعاياها، والحاكم بوصفه صاحب السلطة. كان صادقًا تمامًا، واثقًا ثقة مطلقة بكل ما يعرف، ولم يقل شيئًا لا يؤمن به. لم تنبع قوته من عمق قناعاته ووضوحها فحسب، بل من نزاهة روحه المطلقة.

كان لاو تزو، الذي عاصره لثمانية وعشرين عامًا، ومؤسس إحدى الديانات الصينية الثلاث القائمة آنذاك - الطاوية - رجلًا ربما يضاهيه ذكاءً. لكنه كان في المقام الأول مفكرًا؛ لم يسعَ إلى الارتقاء بالناس؛ بل كان هدفه كبح جماح الأهواء، والحفاظ على الروح في حالة من السكينة التامة. كان زينون الشرق، مؤسس الرواقية الصينية. عنده، الفضيلة مضمونة الجزاء؛ فكل شيء مُنظّم وفق قانون ثابت. أضاف تلاميذه لاحقًا إلى نظامه عنصرًا سحريًا واستحضارًا للأرواح الراحلة، حتى بات يُشبه الآن الروحانية الحديثة؛ لكن المذهب الأصلي للاو تزو كان العقلانية في الفلسفة والرواقية في الأخلاق. يُقال، في كتاب صيني، إن كونفوشيوس زاره، واعترف صراحةً بعجزه عن فهمه. «أعرف كيف تطير الطيور، وكيف تسبح الأسماك، وكيف تجري الحيوانات. قد يُقتل الطائر بالرصاص، وتُصطاد السمكة بالصنارة، ويُوقع بالوحش في الفخ. لكن هناك التنين. لا أستطيع أن أصف كيف يصعد في الهواء، ويحلق إلى السماء. اليوم رأيت التنين«.

لكن الرجل المتواضع، الذي عاش من أجل الآخرين، قد فاق تأثيره تأثير هذا التنين من الذكاء. ومما يزيد أملنا في الإنسان، أن نرى كيف جعلت هذه الصفات من الأمانة الكاملة، والحكمة، والإخلاص السخي للصالح العام، والوفاء حتى النهاية في التمسك بعمله، كونفوشيوس على مدى ثلاثة وعشرين قرنًا المعلم والمرشد اليومي لثلث البشرية.

تميز كونفوشيوس بشكل بارز بالنشاط والمثابرة. لم يتوقف عن العمل حتى مات. كانت حياته متكاملة، جميلة، ونبيلة. قال: «قد يُهزم قائد جيش كبير، لكن لا يمكنك هزيمة عقل الفلاح

المصمم». وقد عمل وفقًا لهذه الفكرة، وأخرى من أقواله. «إذا كنتُ أبني جبلاً، وتوقفتُ قبل وضع آخر سلة من التراب على قمته، فقد فشلتُ في عملي. أما إذا وضعتُ سلة واحدة فقط على السهل، وواصلتُ البناء، فأنا حقاً أبني جبلاً.«

تُروى العديد من الصفات الجميلة والنبيلة عن شخصية كونفوشيوس، من شجاعته في خضم الخطر، إلى تواضعه في أسمى المناصب. لقد أرست كتاباته وحياته أسس الفكر الصيني. وهو شفيع تلك الإمبراطورية العظيمة. مذهبه هو الدين الرسمي للأمة، مدعوماً بسلطة الإمبراطور والهيئة الأدبية. تُنشر كتبه سنوياً من قِبل جمعيات مُخصصة لهذا الغرض، تُوزعها مجاناً. ويحظى أحفاده بأعلى درجات التقدير. بلغ عدد المعابد المُقامة تخليداً لذكراه ألفاً وستمائة وستين معبداً. أحدها يشغل عشرة أفدنة من الأرض. وفي العيدين المُخصصين لذكراه في السنة، تُضحى بنحو سبعين ألف حيوان من مختلف الأنواع، ويُحرق سبعة وعشرون ألف قطعة من الحرير على مذابحه. ومع ذلك، فإن دينه يخلو من الكهنة والطقوس الدينية والعبادة العامة، باستثناء هاتين المناسبتين.

**الفقرة 4: فلسفة الكونفوشيوسية وتطورها اللاحق.**

بحسب السيد ميدوز، يمكن وصف فلسفة الصين، في أصلها وحالتها الراهنة، بإيجاز على النحو التالي:<sup>14</sup> وبغض النظر عن النظام البوذي والطاوية، اللذين يزودان الصينيين بعنصر العبادة الدينية وعقيدة العالم الخارق للطبيعة، وهما عنصران غائبان في نظام كونفوشيوس، نجد أن الأخير هو الدين الرسمي للدولة، متسامحًا مع الأنظمة الأخرى باعتبارها ملائمة لأصحاب العقول الضعيفة. ويهيمن النظام الكونفوشيوسي، الذي يُدرَّس باستمرار من خلال الامتحانات التنافسية، على الفكر الصيني. وقد بدأ تطوره الأول منذ ميلاد كونفوشيوس وحتى وفاة مينسياس (أي من 551 ق.م. إلى 313 ق.م.). امتدت فترتها الثانية من عهد تشاو تسي (1034 م) إلى عهد تشو تسي (1200 م). يُعدّ الأخير من هؤلاء المُؤسِّس الحقيقي

للفلسفة الصينية، وأحد أعظم رجال البشرية. وتتمثل مؤلفاته الرئيسية في شروح الملوك والكتب الأربعة. ويحفظها ملايين الصينيين عن ظهر قلب، ساعين إلى اجتياز اختبار المعرفة. امتحانات الخدمة المدنية. تتلخص الفلسفة الصينية، كما وضعها تشو تسي، فيما يلي<sup>15</sup>:

هناك مبدأ واحد أسمى وأسمى للوجود كله، وهو "تاي كي" أو "الغاية العظمى". هذا المبدأ غير مادي على الإطلاق، وهو أساس نظام الكون. من هذا المبدأ الأسمى، الذي يعمل منذ الأزل، تنبثق كل الكائنات الحية وغير الحية. يعمل هذا المبدأ بطريقتين: التوسع والانكماش، أو من خلال نبضات نشطة وسلبية متواصلة. يُطلق على النبض النشط المتوسع اسم "يانغ"، وعلى النبض السلبي المكثف اسم "يين"، ويمكن تسمية كليهما بالجوهر الإيجابي والجوهري السلبي للأشياء. عندما تصل المرحلة النشطة المتوسعة من العملية إلى أقصى حد لها، تصبح العملية سلبية ومكثفة؛ ومن هذه الاهتزازات تنشأ جميع الكائنات المادية والفنية. لذلك، فإن الخلق عملية دائمة، فالمادة والروح نتيجتان متضادتان لنفس القوة. تميل الأولى إلى التنوع، بينما تميل الثانية إلى الوحدة. والتنوع في الوحدة قانون وجودي دائم وعالمي. الإنسان نتاج أقصى تطور لهذا الفعل والعاطفة النابضين؛ وطبيعة الإنسان، بوصفها النتيجة الأسمى، خيرٌ مطلق، تتألف من خمسة عناصر، هي: المحبة، والبر، والأدب، والحكمة، والإخلاص. هذه العناصر تُشكل جوهر طبيعة الإنسان؛ ولكن عندما يحتك الإنسان بالعالم الخارجي، ينشأ الشر نتيجةً للصراع. عندما يتبع الإنسان ما تمليه عليه طبيعته، تكون أفعاله خيرًا، ويسود الانسجام. وعندما يتأثر تأثرًا مفرطًا بالعالم الخارجي، تكون أفعاله شرًا، ويحل الخلاف. الرجل الصالح هو من يمتلك بصيرةً فطريةً داخليةً للمبدأ الأسمى في عمله المزدوج (أو ما نسميه رؤية الله، الرؤية المباركة)، ولذلك يطيع طبيعته تلقائيًا وبسهولة. ومن ثم، فإن جميع أفكاره حكيمة تمامًا، وأفعاله خيرٌ مطلق، وأقواله صادقة تمامًا. كان كونفوشيوس آخر هؤلاء الصالحين. تستمد الكتب المقدسة سلطتها المطلقة من كون مؤلفيها رجالًا صالحين، يتمتعون بفهم فطري لآلية عمل المبدأ الأسمى.

تتخلل هذه المبادئ جميع الفلسفة الكونفوشيوسية: أولًا، أن القدوة هي المؤثرة؛ ثانيًا، أنه لضمان أمن الإمبراطورية، يجب ضمان سعادة الشعب؛ ثالثًا، أنه بالتأمل الفردي الدؤوب يمكن للمرء أن يصل في النهاية إلى معرفة جوهر الأشياء؛ رابعًا، أن هدف كل حكومة هو جعل الشعب فاضلًا وراضيًا.

الفقرة ٥: لاو تزو والطاوية.

يُعدّ نظام الطاوية أحد الأنظمة الدينية الثلاثة في الصين، أما النظامان الآخران فهما نظام كونفوشيوس، والبوذية بصيغتها الصينية. تكمن صعوبة فهم الطاوية في ظهورها بثلاثة أشكال متباينة تمامًا: (1) كفلسفة مطلقة أو غير مشروطة، كما في كتاب تسي لاو العظيم، أو المعلم القديم؛ (2) <sup>16</sup>كنظام أخلاقي للمدرسة النفعية، <sup>17</sup>التي تُحوّل الواجب إلى حكمة؛ و(3) كنظام سحري، مرتبط بالاعتقاد بالأرواح. في كتاب "تاو تي كينغ" نجد أفكار لاو نفسه، والتي سنحاول توضيحها؛ مع الأخذ في الاعتبار أنها تُعتبر غامضة وصعبة حتى من قِبل الشراح الصينيين.

التاو (الفقرة 1) هو ما لا يُسمى، وهو أصل السماء والأرض. وباعتباره ما يُمكن تسميته، فهو أم كل شيء. هذان الاثنان واحد في جوهرهما. الوجود والعدم ينبثقان من بعضهما البعض (الفقرة 2). التاو فارغ ولكنه لا ينضب (الفقرة 4)، وهو نقي، وعميق، وكان موجودًا قبل الآلهة. هو غير مرئي، ليس موضوعًا للإدراك، بل يعود إلى العدم (الفقرتان ١٤ و٤٠). هو غامض، مشوش، ومبهم (الفقرتان ٢٥ و٢١). هو صغير وقوي، حاضر في كل مكان، وإليه تعود جميع الكائنات (الفقرة ٣٢). هو بلا رغبات، عظيم (الفقرة ٣٤). كل الأشياء تولد من الوجود، والوجود يولد من العدم (الفقرة ٤٠).

من هذه العبارات وما شابهها، يبدو أن فلسفة تاو تي كينغ هي فلسفة الوجود المطلق، أو وحدة الوجود والعدم. في هذه النقطة، سبقت هيغل بثلاثة وعشرين قرنًا.١٨ فهي تُعلّم أن المطلق هو

مصدر الوجود والعدم. الوجود هو الجوهر، والعدم هو الوجود. الأول هو الظاهر، والأخير هو الظاهر.

بما أن الوجود هو مصدر العدم (الفقرة 40)، فإنّ تعريف المرء لنفسه بالوجود يُوصله إلى كلّ ما هو عدم، أي إلى كلّ ما هو موجود. ولذلك، فبدلاً من السعي لاكتساب المعرفة، يتجنّبها الحكيم: فبدلاً من العمل، يرفض العمل. إنه "يُغذي عقله بسلبية حكيمة" (الفقرة 16). "عدم العمل هو مصدر كلّ قوة" هي أطروحة حاضرة باستمرار في ذهن لاو (الفقرات 3، 23، 38، 43، 48، 63). الحكيم كالماء (الفقرات 8، 78)، الذي يبدو ضعيفًا وهو قويّ؛ الذي يلين، ويبحث عن أدنى مكان، والذي يبدو أطرى شيء ويكسر أقسى شيء. لكي يكون المرء حكيمًا، عليه أن يتخلى عن الحكمة، ولكي يكون صالحًا، عليه أن يتخلى عن العدل والإنسانية، ولكي يكون عالمًا، عليه أن يتخلى عن المعرفة.

(الفقرات ١٩، ٢٠، ٤٥)، ويجب ألا تكون لديه رغبات (الفقرات ٨، ٢٢)، ويجب أن ينفصل عن كل شيء (الفقرة ٢٠) وأن يكون كطفل حديث الولادة. من كل شيء ينبثق نقيضه، السهل من الصعب، والصعب من السهل، والطويل من القصير، والعالي من المنخفض، والجهل من المعرفة، والمعرفة من الجهل، والأول من الأخير، والأخير من الأول. هذه التناقضات مترابطة فيما بينها بمبدأ الطاو الخفي (الفقرات ٢، ٢٧). لا شيء مستقل أو قادر على الوجود إلا من خلال نقيضه. الرجل الصالح والرجل الشرير ضروريان لبعضهما البعض على حد سواء (الفقرة ٢٧). الرغبة الصحيحة هي عدم الرغبة (الفقرة ٦٤). يستطيع القديس أن يفعل أشياء عظيمة لأنه لا يحاول فعلها (الفقرة ٦٣). الرجل المسالم ينتصر. ١٩ من يخضع للآخرين يسيطر عليهم. بهذا النفي لكل شيء نمتلك كل شيء (الفقرة 68). لذا، فإن عدم الفعل هو سر كل قوة (الفقرات 3، 23، 38، 43، 48، 63).

نجد هنا نفس مذهب الأضداد الذي يظهر في كتاب فايدون، والذي تكرر مرارًا في الفلسفة. وسنجد ما يشبهه في كتاب سانخيا كاريكا عند الهندوس. إن الدواد، مع الموناد الكامنة وراءه، هو المبدأ الأساسي للأفيستا.

والنتيجة، حتى الآن، هي سلبية فاعلة. يعلّم لاو أن عدم الفعل ينطوي على أعلى طاقة للوجود، ويؤدي إلى أعظم النتائج. بعدم الفعل، يتوحد المرء مع التاو، ويتلقى كل قوته. وهنا لا شك أن الفيلسوف الصيني كان يسلك نفس المسار مع ساكيا موني. تاو أحدهما هو نيرفانا الآخر. يكمن اختلاف مسار كلٍّ منهما في دوافعه. سعى ساكيا موني إلى النيرفانا، أو المطلق، والمعرفة الخالصة، هربًا من الشرّ وقهرًا له. أما لاو، كما يُبيّن كتابه، فقد سعى إليها لنيل السلطة. عند هذه النقطة، يختلف النظامان. فالبوذية كريمة، مُحسنة، وإنسانية؛ تسعى لمساعدة الآخرين. بينما تسعى الطاوية إلى تحقيق مصالحها الخاصة. ومن هنا تنبع الأخلاق الأنانية التي تسود كتاب الثواب والعقاب. فلكل عمل صالح جزاءٌ مُرتبط به. ومن هنا أيضًا انحطاط النظام إلى السحر والروحانية الخالصة. ورغم أن مسار البوذية يسير على نفس المنوال تقريبًا، إلا أنها تحتفظ دائمًا في نظام استحقاقاتها بمسحة من الكرم.

وهكذا نجد في كتاب تاو تي كينغ العنصر الذي توسّع لاحقًا ليُصبح نظامًا للأخلاق النفعية والسعادية في كتاب الثواب والعقاب. كما يُمكننا أن نتتبّع فيه مصدر النزعة السحرية في الطاوية. إن مبدأ إمكانية التواصل مع التاو المجهول، وبالتالي اكتساب القدرة على الطبيعة، من خلال وضع المرء نفسه في حالة سلبية تامة، يقود بطبيعته إلى السحر. وقد أدى هذا المسار الفكري نفسه إلى نتائج مماثلة في حالة الأفلاطونية المحدثة. فالاتحاد الروحي مع العنصر الإلهي في الطبيعة، الذي بلغه أفلوطين أربع مرات في حياته، نتج عن رؤية مباشرة لله. وفي هذه الرؤية تُمنح كل الحقيقة للروح. ويقول أفلوطين إن الوحدة التي تُنتج كل الأشياء هي جوهر وراء كل من المادة والصورة. ومن خلال هذا الجوهر تتواصل جميع الأرواح وتتفاعل، والسحر هو هذا التفاعل بين الأرواح من خلال روح الأرواح، التي يتوحد معها المرء في الاتحاد الروحي. ولذلك، يستطيع الإنسان التأثير على الشياطين والسيطرة على

الأرواح من خلال الطقوس السحرية. كان جوليان، ذلك الأفلاطوني المحدث المتحمس، محاطًا بالعرافين والكهنة والمنجمين<sup>20</sup>.

في كتاب "تاو تي كينغ" (الفقرات 50، 55، 56، وما بعدها) يُقال إن من يعرف التاو لا يخشى لدغة الأفاعي ولا فكّي الوحوش الضارية ولا مخالب الطيور الجارحة. فهو منزّه عن الخير والشر. لا يخشى وحيد القرن ولا النمر. في المعركة، لا يحتاج إلى درع ولا سيف. لا يستطيع النمر تمزيقه، ولا يستطيع الجندي جرحه. فهو منيع وآمن من الموت<sup>21</sup>.

لو لم يكن للأفلاطونية المحدثة خصمٌ قويٌّ هو المسيحية، لربما رسّخت نفسها كدينٍ دائمٍ في الإمبراطورية الرومانية، كما هو الحال مع الطاوية في الصين. لقد حاولتُ أن أبين كيف انبثق الشكل اللاحق لهذا النظام الصيني بشكل طبيعي من مبادئه، وكيف انحدرت فلسفة المطلق إلى نظامٍ من السحر الأسود.

**الفقرة 6: الطابع الديني لـ"الملوك."**

لقد رأينا أن المبدأ الأسمى في فلسفة الكونفوشيوسية ليس بالضرورة مرادفًا لإله حيّ، عاقل، وشخصي. ولم يُبدِ كونفوشيوس، حين تحدث عن "تين" أو السماء، أي إيمانٍ بمثل هذا الكائن. فهو لم يُؤكد وجود إلهٍ أعلى ولم ينكره. ولم تكن عبادته وصلاته بالضرورة تُشير إلى مثل هذا الإيمان. بل كانت صلاة خشوعٍ موجهة إلى قوةٍ مقدسة، غامضة، مجهولة، فوق كل شيءٍ مرئي وخلفه. ولم يُفصح كونفوشيوس، بصراحته المُطلقة، عن ماهية تلك القوة. أما في "الملكة الأنثى"، فيُخاطب إلهٌ شخصي. تُقرّ أقدم الكتب بوجود شخصٍ إلهي. فهي تُعلّم بوجود كائنٍ أسمى واحد، حاضرٍ في كل مكان، هو يرى كل شيء، ويملك ذكاءً لا يغيب عن أحد، فهو يريد للناس أن يعيشوا معًا في سلام وأخوة. لا يأمرنا فقط بالأفعال الصالحة، بل بالرغبات والأفكار النقية، وأن نراقب سلوكنا، وأن نحافظ على وقار وجلال، "كقصر تسكنه الفضيلة"؛ ولكن الأهم من ذلك، أن نحفظ ألسنتنا. "فيمكن إزالة عيب من الماس بصقله بعناية؛ أما إذا كان في كلماتك أدنى عيب، فلا سبيل لإزالته". "التواضع هو الأساس المتين لجميع الفضائل". "إن

الاعتراف بالقصور هو السبيل للاستعداد لتعليم الآخرين؛ فمنذ اللحظة التي يتخلى فيها الإنسان عن غروره وكبريائه، يمارس كل ما يتعلمه من خير في الصباح قبل حلول الليل". «إنّ السماء تتغلغل في أعماق قلوبنا، كما يتغلغل النور في غرفة مظلمة. علينا أن ننسجم معها، حتى نصبح كآلتين موسيقيتين مضبوطتين على نغمة واحدة. علينا أن نتحد معها، كلوحين يبدوان كلوح واحد. علينا أن نستقبل عطاياها في اللحظة التي تفتح فيها يدها لتمنحها. إنّ أهوائنا الجامحة تغلق أبواب أرواحنا في وجه الله».

هذه هي تعاليم هؤلاء الملوك، التي تُعدّ بلا شك من أقدم إبداعات العقل البشري. في زمن كونفوشيوس، كادت هذه التعاليم أن تُنسى، وكادت تُهمل تمامًا. قام كونفوشيوس بمراجعتها، وأضاف إليها شروحاته وتعليقاته، وفي إحدى آخر أعمال حياته، جمع تلاميذه حوله، وأهدى هذه الكتب إلى السماء في قداس مهيب. أقام مذبحًا ووضعها عليه، وسجد لله، وشكره ساجدًا بتواضع على نعمة الحياة والصحة التي مُنحت له لإتمام هذا العمل.

**الفقرة ٧. كونفوشيوس والمسيحية. شخصية الصينيين.**

كان من السهل إيجاد عيوب في مذهب كونفوشيوس، فهو لا يُعلّم الكثير عن الله أو الخلود. ولكن إذا كانت شريعة موسى، التي لم تُعلّم شيئًا عن الحياة الآخرة، تمهيدًا للمسيحية؛ وإذا كانت الفلسفة اليونانية، كما أكد آباء الكنيسة الأوائل، مُعلّمًا يُهيّئ الناس للمسيح؛ فمن ذا الذي يُشكّك في أن صدق ونقاء تعاليم كونفوشيوس كانا مُقدّرين بعناية إلهية لهداية هذه الأمة العظيمة إلى الطريق الصحيح؟ كونفوشيوس نجمٌ في الشرق، يُرشد شعبه إلى المسيح. ومن أصدق أقواله قوله: "في الغرب يجب البحث عن القديس الحقيقي وإيجاده". لديه إدراك، كما كان لدى العظماء، بوجود من هو أسمى منه، سيأتي بعده. لذلك، لا يُمكننا أن نشكّ في أن الله، الذي لا ينسى أحدًا من أبنائه، قد وهب هذا المُعلّم لملايين الصينيين ليرشدهم حتى يكونوا مُستعدّين لنورٍ أسمى. ولا شك أن ازدهار هذه الأمة الدنيوي وفضائلها الخارجية، واستقرارها المستمر على مر الزمن وسط تقلبات العالم، يعود الفضل فيه إلى حد كبير إلى دروس تبجيل

الماضي، واحترام المعرفة، والسلام والنظام، ولا سيما بر الوالدين، التي غرسها فيهم. ففي حالتهم، إن لم يكن في غيرهم، تحقق وعد الوصية الإلهية: "أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك."

وبمقارنة نظام كونفوشيوس بالمسيحية، يتضح جليًا أن المسيحية تختلف عن هذا النظام، كما تختلف عن معظم الأنظمة الأخرى، في شموليتها. يقول يسوع للفيلسوف الصيني، كما قال للشريعة اليهودية: "لم آتِ لأهدم بل لأكمل". فهو يُكمل تبجيل كونفوشيوس للماضي بإضافة الأمل في المستقبل. يُحقق كونفوشيوس استقرارها بالتقدم، وإيمانها بالإنسان بإيمانها بالله، واهتمامها بهذه الدنيا بترقب الآخرة، وإدراكها للزمن بإدراكها للأبدية. ويهدف إلى السلام والنظام والرخاء الظاهري والفضيلة والأخلاق الحميدة. كل هذا ينتمي أيضًا إلى المسيحية، لكن المسيحية تُضيف حماسة أخلاقية، وإيمانًا بالعالم الروحي، وأملًا في الخلود، وشعورًا بحضور الله الأبوي. وهكذا، نجد هنا، كما في السابق، أن المسيحية لا تستبعد الأديان الأخرى، بل تشملها، وتتميز بكونها أعمق وأسمى وأوسع وأشمل منها.

لا يُمكن احتقار شعبٍ يمتلك مؤسساتٍ كهذه وحياةً اجتماعيةً كهذه التي وصفناها، ووصفهم بالتخلف أمرٌ سخيفٌ فينا كما هو سخيفٌ فيهم وصف الأوروبيين بالبرابرة. إنهم شعبٌ طيبٌ وذكيٌ وسعيد. يقول الملازم فوربس، الذي قضى خمس سنوات في الصين - من عام 1842 إلى عام 1847 -: "وجدت نفسي وسط شعبٍ ودودٍ وكريمٍ ومضيافٍ لا يقلّ كرمًا عن أي شعبٍ آخر على وجه الأرض، متقدمين علينا في بعض الأمور ومتخلفين عنا في أمورٍ أخرى". أما بخصوص تهمة عدم الأمانة التي وُجّهت إليهم من قِبَل أولئك الذين يحكمون على الأمة بأسرها من خلال سكان ضواحي كانتون المنحطين، فيقول فوربس: "لقد تضررت ممتلكاتي أكثر من غيرها عند وصولها".

في إنجلترا وعبور الحدود البريطانية أكثر مما عشته طوال فترة إقامتي في الصين.

يقول اليسوعي دو هالد: "لا توجد أمة أكثر جدية واعتدالًا من هذه. لقد اعتادوا على المشاق منذ نعومة أظفارهم، مما يساهم بشكل كبير في الحفاظ على براءة أخلاقهم... إنهم ذوو طبع وديع، سهل الانقياد، وإنساني". ويرى أنهم متواضعون للغاية، ويعتبر حب الربح رذيلتهم الرئيسية. يقول: "المصلحة هي دافع كل أفعالهم؛ لأنهم، عندما يُتاح لهم أقل ربح، يحتقرون كل الصعوبات ويخوضون أشد الرحلات مشقة للحصول عليه. قد يكون هذا صحيحًا؛ ولكن لو أن مسافرًا صينيًا في أمريكا روى لنا نفس الكلام، ألن يكون صحيحًا تمامًا؟ أحد أحدث الكُتّاب - مؤلف كتاب "المملكة الوسطى" - يتهم الصينيين بالشهوانية المفرطة والكذب وعدم الأمانة. لا شك أن هذه خطايا متأصلة فيهم، كما هو الحال في جميع الأمم التي تتلقى تعليمها في ظل نظام يجعل الخضوع للسلطة الفضيلة الأساسية. لكن هذا الكاتب لم يعش إلا في كانتون وماكاو، ولم يرَ شخصيًا إلا حثالة الشعب. وهو يُقر بأنهم "قد بلغوا، من خلال الحفاظ على السلام والنظام، مستوى عالٍ من الأمن على حياتهم وممتلكاتهم؛ وأن الطبقات المختلفة مرتبطة ببعضها البعض بطريقة متجانسة بشكل ملحوظ من خلال انتشار التعليم؛ وأن الممتلكات والصناعة تنال جزاءها العادل من طعام وكساء ومأوى. ويذكرنا أيضًا بأن ديانة الصين تختلف عن جميع الديانات الوثنية في أنها لا تشجع على القسوة ولا على الشهوانية. فلم تُقدَّم قط أي ضحايا بشرية على مذابحها، ولم تُدنِّس تلك الطقوس الفاحشة التي ظهرت في العديد من الديانات طقوس عبادتها النقية.

يتمتع المواطن الصيني بدرجة من النظام والسلام والراحة لا مثيل لها في أي مكان آخر في آسيا. "بإمكانه امتلاك وبيع العقارات بسهولة ويقين وأمان تام، وهو أمر مثالي مقارنةً بطبيعة المعاملات الإنجليزية من النوع نفسه <sup>22</sup>".بإمكانه اجتياز البلاد لمسافة ألفي ميل دون أن يسأله أي مسؤول. بإمكانه ممارسة أي مهنة يشاء. بإمكانه مغادرة بلاده والعودة إليها دون جواز سفر. لا يوجد قانون البكورة. يُعيِّن الإمبراطور وريثه، ولكن غالبًا ما يكون ابنه الأصغر بنفس قدر تعيينه لابنه الأكبر. إن مبدأ عدم أحقية أي رجل بالحكم بالولادة معروف جيدًا لدى الـ 360 شخصًا. إن ملايين الصينيين أكثر من سبعة وعشرين مليونًا في

بريطانيا العظمى الذين لديهم الحق في محاكمة أمام أقرانهم.23 إن مبدأ الحكومة الصينية هو الإقناع بدلاً من الإجبار، واستخدام الوسائل الأخلاقية بدلاً من الوسائل المادية. وهذا يستند إلى الإيمان الأساسي بجوهر الخير في الإنسان. فكما لاحظ السيد ميدوز بحق: "إن النظرية القائلة بأن طبيعة الإنسان شريرة بشكل جذري هي الأساس النفسي الحقيقي للحكم الاستبدادي أو الحكم القائم على القوة المادية؛ بينما تُعتبر نظرية أن طبيعة الإنسان خيرةٌ بطبيعتها أساسًا للحكم الحر أو الحكم القائم على القوة الأخلاقية. وتسعى الحكومة الصينية إلى أن تكون أبوية. فقد رفضت فرض ضريبة على الأفيون، لأن ذلك سيشجع على بيعه، على الرغم من أنها قد تجني دخلًا كبيرًا من هذه الضريبة. والأدب المقدس الصيني خالٍ تمامًا من كل ما هو نجس أو مسيء. لا يوجد سطر واحد فيه إلا ويمكن قراءته بصوت عالٍ في أي تجمع عائلي في إنجلترا. جميع الطقوس غير الأخلاقية في عبادة الأصنام محظورة. يقول السيد هيو إن ولادة ابنة تُعد كارثة في الصين؛ لكن الرحالة المطلعين يخبروننا أن الآباء يتجولون مع بناتهم الصغيرات، فخورين وسعداء كما يمكن أن يكون الأب الأوروبي. توجد العبودية والمحظيات في الصين، وللزوج سلطة مطلقة على زوجته، حتى في أمر الحياة والموت. هذه العادات تميل إلى إفساد أخلاق الصينيين، وهي مصدر شر عظيم. المرأة عبدة للرجل. الاستثناء من ذلك هو حالة الأم. فهي صاحبة السلطة المطلقة في منزلها، والأمهات، في الصين، تحظى المرأة باحترام عالمي. إذا طلب ضابط إجازة لزيارة والدته، يجب منحه إياها. يحق للأم أن تأمر مسؤولاً بأخذ ابنها إلى السجن، ويجب طاعتها. تُعتبر المرأة، كزوجة بلا أطفال، عبدة، أما كأم لأبناء بالغين، فهي ملكة.

**الفقرة 8: ثورة تاي بينغ.**

شهدت الصين في عصرنا حدثين استثنائيين، قد تكون نتائجهما بالغة الأهمية للأمة وللبشرية جمعاء. الأول هو ثورة تاي بينغ، والآخر هو البعثة الدبلوماسية للسيد بورلينغيم إلى العالم الغربي. ومهما كانت النتيجة المباشرة للثورة الكبرى في عصرنا ضد سلالة التتار، فستظل ظاهرة بالغة الأهمية. لا شك، على الرغم من الرأي السائد المخالف، أنها كانت حركة دينية،

نابعة من عقل واحد تأثر بشدة بقراءة الكتاب المقدس. ومما لا شك فيه أن عداء الصينيين لملوك التتار الحاليين في مانشو قد ساهم في ذلك؛ ولكن كان هناك... لقد كان عنصراً من عناصر القوة منذ البداية.

استمدت هذه الحركة، كحركة البيوريتانيين، قوتها من حماسها الديني. تلقى زعيمها، الأمير السماوي هونغ سيو تسوين، ابن فلاح فقير يعيش على بعد ثلاثين ميلاً شمال شرق كانتون، كتيبًا يحتوي على مقتطفات من الكتاب المقدس الصيني للدكتور موريسون، من موزع منشورات صيني في شوارع كانتون. كان ذلك في عام ١٨٣٣، عندما كان في العشرين من عمره تقريبًا. أخذ الكتاب إلى منزله، وتصفحه بإهمال، ثم رماه جانبًا. بعد أن خاب أمله في شهادته في امتحانين تنافسيين، مرض، ورأى رؤيا لرجل عجوز يقول: "أنا خالق كل شيء. اذهب وقم بعملي". بعد هذه الرؤيا، مرت ست سنوات، اندلعت الحرب الإنجليزية، واستولى الأسطول الإنجليزي على الحصون الصينية في نهر كانتون. أشارت هذه الكارثة الوطنية العظيمة، وفقًا للمفاهيم الصينية، إلى وجود خلل ما في الحكومة؛ وأظهر هذا النجاح الذي حققه الإنجليز أنهم، بطريقة ما، كانوا يحققون إرادة السماء. دفع هذا هونغ سيو تسوين إلى إعادة قراءة كتبه المسيحية؛ وبمفرده، دون مرشد، أصبح مؤمنًا صادقًا بالمسيح، على طريقته الخاصة. كان الله خالق كل شيء، والأب الأعلى. وكان يسوع الأخ الأكبر والمعلم السماوي للبشرية. وكان لا بد من دحر عبادة الأصنام، وممارسة الفضيلة. آمن هونغ سيو تسوين أن الكتاب المقدس يؤكد رؤاه السابقة. قبل مهمته وبدأ في استقطاب المهتدين. نبذ جميع مهتديه عبادة الأصنام، وتخلوا عن عبادة كونفوشيوس. سافروا جيئة وذهابًا ينشرون تعاليمهم، وشكلوا جماعة من "عباد الله". أصبح أول مهتدٍ، فونغ يون سان، أكثر دعاتها حماسة وواعظها المخلص. عاد هونغ سيو تسوين إلى موطنه، وذهب إلى كانتون، وهناك التقى بالسيد روبرتس، وهو مبشر أمريكي، أغرته اتهامات باطلة برفض منحه المعمودية المسيحية. لكنّه، دون أن يغضب من السيد روبرتس، عاد إلى منزله وعلم أتباعه الجدد كيفية تعميد أنفسهم. ازداد عدد جماعة "عباد الله". أُلقي القبض على بعضهم بتهمة تحطيم الأصنام، وكان من بينهم

فونغ يون سان، الذي قام، في طريقه إلى السجن، بإقناع رجال الشرطة الذين كانوا بجانبه بالاهتداء. أطلق هؤلاء المهتدون الجدد سراحه وانضموا إليه كتلاميذه. شهدت هذه الجماعة ظواهر لافتة للنظر. فقد كان الرجال يدخلون في حالة من النشوة الروحية ويلقون المواعظ. وشُفي المرضى بقوة الصلاة. خضعت تعاليم هؤلاء المنغمسين في النشوة الروحية لاختبار الكتاب المقدس؛ فإن وُجدت متوافقة معه، قُبلت؛ وإن لم تكن، رُفضت.

في أكتوبر من عام 1850، اتخذت هذه الحركة الدينية شكلاً سياسياً. لجأ عدد كبير من الأشخاص، الذين كانوا في حالة تمرد مزمن ضد السلطات الصينية، إلى المنطقة وانضموا إلى "عباد الله". ونظرًا لملاحقة الجنود الإمبراطوريين لهم، فقد تم توفير الحماية لهم. وهكذا بدأت الحرب. وجد قادة الحركة الدينية أنفسهم مضطرين للاختيار بين الخضوع والمقاومة. قاوموا، فاندلعت الانتفاضة الكبرى. لكن في الصين، تُعدّ الانتفاضة ضد السلالة الحاكمة أمرًا طبيعيًا. بل يمكن القول إنها جزء من الدستور. فبحسب الكتب المقدسة، التي تُدرّس في جميع المدارس وتُدرج في الامتحانات، يقع على عاتق الشعب واجب إسقاط أي حكومة فاسدة. لا يملك الصينيون سلطة التشريع، ولا يفرضون الضرائب على أنفسهم، والحكومة استبدادية بحتة. لكنها ليست استبدادًا؛ فالأعراف القديمة تُشكّل دستورًا، يجب على الحكومة احترامه وإلا ستُسقط. يقول السيد ميدوز: "إن حق التمرد في الصين عنصر أساسي من عناصر الاستقرار الوطني". وقد أظهرت انتفاضة تاي بينغ (أو انتفاضة السلام العالمي) طابعها الديني طوال أحداثها. ولم تكن وحشية إلا في سياق الانتقام. عند الاستيلاء على نانكينغ، صدرت الأوامر بجمع جميع النساء وحمايتهن، وكان يُعاقب بالإعدام كل من يُلحق بهن الأذى. قبل الهجوم على نانكينغ، ركع جمع غفير من الثوار وصلّوا، ثم نهضوا وقاتلوا، كجنود كرومويل. رُفضت مساعدة مجموعة كبيرة من المتمردين، لأنهم لم يتخلوا عن عبادة الأصنام، واستمروا في السماح بتعاطي الأفيون. رُتّلت أناشيد الحمد لله والأخ الأكبر في المعسكر. وأعلن قائد الانتفاضة بوضوح أنه في حال نجاحها، سيُستبدل الكتاب المقدس بكونفوشيوس في جميع الامتحانات العامة للمناصب. سيؤدي هذا إلى دراسة الكتاب المقدس فورًا من قِبل جميع

المرشحين للمناصب من بين ثلاثمائة وستين مليون شخص. سيُمثل هذا الحدث الأعظم في تاريخ المسيحية منذ أيام قسطنطين، أو على الأقل منذ اعتناق الشعوب الجرمانية للمسيحية. من المرجح أن التمرد قد فشل. لكن لا بد أن تترتب على هذا الاهتمام الهائل بالمسيحية في قلب الصين نتائج عظيمة، وهو اهتمام لم تُثره أي بعثة تبشيرية مسيحية، سواء أكانت كاثوليكية أم بروتستانتية، بل نزل على هذه الأمة العظيمة كالمطر من السماء.

في كتاب "ثورة تي-بينغ" (الذي نُشر في لندن عام ١٨٦٦)، والذي كتبه إنجليزي كان قائدًا بين قبيلة تي-بيوغ، يُقدّم وصفٌ وافيٌّ وشيّقٌ وصريحٌ على ما يبدو للطابع الديني والأخلاقي لهذه الحركة العظيمة، والذي استقيتُ منه التفاصيل التالية:

يقول كاتب هذه السطور: "ربما كنتُ أكثر درايةً بالممارسات الدينية لقبيلة تي-بينغ من أي أوروبي آخر، وبصفتي مسيحيًا بروتستانتيًا، لم أجد قطّ سببًا لإدانة طقوس عبادتهم. إنّ أهمّ جزءٍ من عقيدتهم هو الكتاب المقدس، بعهديه القديم والجديد كاملين." طُبعت هذه الوثائق ووُزعت مجانًا من قِبل الحكومة على جميع سكان منطقة تي-بينغ. كما وُزعت مقتطفات من الكتاب المقدس، مُصاغة شعرًا، وحُفظت عن ظهر قلب. واقتصرت طقوس عبادتهم على البروتستانتية. وكانوا يلتزمون بيوم السبت، وهو اليوم السابع من أيام الأسبوع. وفي ذلك اليوم، كانوا يضعون ثلاثة أكواب من الشاي على المذبح كقربان للثالوث. وكانوا يحتفلون بالتناول مرة في الشهر بتناول كأس من نبيذ العنب. وكان كل من يُقبل في جماعتهم يُعمّد بعد فحص واعتراف بالذنوب. وفيما يلي الصيغة المنصوص عليها في "كتاب الوصايا الدينية لسلالة تي-بينغ":—25

الصيغ الواجب اتباعها عند الرغبة في التوبة عن الذنوب: "يجب على المرء أن يركع أمام الله، ويطلب منه أن يغفر له ذنوبه. ثم يمكنه أن يأخذ وعاءً من الماء ويغتسل، أو يذهب إلى النهر ويغتسل؛ وبعد ذلك، يجب عليهم أن يواظبوا يوميًا على التضرع إلى الله طالبين فضله ومعونة الروح القدس لتجديد قلوبهم، وأن يباركوا قبل كل وجبة، وأن يقدسوا يوم السبت، وأن يطيعوا

جميع وصايا الله، وخاصةً تجنب عبادة الأصنام. عندئذٍ يُعتبرون أبناء الله، وتذهب أرواحهم إلى السماء عند موتهم.

وكانت صلاة المعمد كما يلي:

"أنا (أ. ب.)، راكعًا بقلب صادق، أتوب عن ذنوبي، وأتضرع إلى الآب السماوي، الإله العظيم، برحمته الواسعة، أن يغفر لي ذنوبي السابقة عن جهلي في تكرار مخالفة أوامر الله، وأتضرع إليه بصدق أن يمنحني التوبة والحياة الجديدة، لكي تذهب روحي إلى السماء، بينما أتخلى من الآن فصاعدًا عن طرقي السابقة، وأترك عبادة الأصنام وكل الممارسات الفاسدة، طاعةً لأوامر الله." أصلي أيضًا أن يمنحني الله روحه القدوس ليُصلح قلبي الشرير، ويُنجّيني من كل تجربة، ويمنحني فضله وحمايته، فيرزقني الطعام والكساء، ويُجنّبني المصائب، ويمنحني السلام في الدنيا والمجد في الآخرة، برحمة مُخلصنا وأخينا الأكبر يسوع، الذي افتدانا من الخطيئة.

في كل بيت في أراضي تي-بينغ، عُلّقت الترجمة التالية للصلاة الربانية لاستخدام الأطفال، مطبوعة بأحرف سوداء كبيرة على لوحة بيضاء:

"أيها الرب الأعلى، أبونا السماوي، اغفر لنا جميع خطايانا التي ارتكبناها عن جهل، متمردين عليك. باركنا، إخوتنا وأخواتنا، أبناءك الصغار. ارزقنا طعامنا وكساءنا كل يوم؛ واحفظنا من كل مصائب وآلام؛ حتى ننعم بالسلام في هذه الدنيا، ونصعد في النهاية إلى السماء لننعم بالسعادة الأبدية. نسألك أن تُبارك إخوتنا وأخواتنا من جميع الأمم." نسأل هذه الأمور من أجل فضل فداء ربنا ومخلصنا، أخونا السماوي يسوع. وندعو أيضًا، أيها الآب السماوي، أن تُنفَّذ مشيئتك على الأرض كما في السماء، فلك كل الممالك والمجد والقدرة. آمين.

يقول الكاتب إنه شاهد مرارًا نساء تي-بينغ يُعلِّمن الأطفال هذه الصلاة؛ "وكثيرًا ما كان الأطفال، عند دخولهم أحد البيوت، يركضون نحوي، ويسحبونني نحو اللوح، ويبدأون بتلاوة الصلاة".

كان يُحتفل باليوم السابع بدقة متناهية. فما إن تدق الساعة الثانية عشرة من منتصف ليلة الجمعة، حتى يُدعى جميع الناس في جميع أنحاء مملكة تي-بينغ للعبادة. وكانت تُقام صلاتان أخريان خلال اليوم. تبدأ كل منهما بتمجيد الله، ويسوع، والروح القدس. ثم تُنشد هذه الترتيلة:

"إن العقيدة الحقة تختلف عن عقيدة هذا العالم؛

إنها تُخلِّص نفوس الناس وتمنحهم النعيم الأبدي.

يستقبلها الحكماء بفرح فوري؛

أما الحمقى، إذا أيقظتهم، يجدون طريقهم إلى السماء." أبونا السماوي، برحمته العظيمة،

لم يبخل بابنه الوحيد، بل أرسله

ليبذل حياته فداءً للخطاة.

فعندما يعلم الناس هذا ويتوبون، قد يدخلون الجنة.

وتضمنت بقية الطقوس قراءة فصل من الكتاب المقدس من قِبَل القس؛ وترديد قانون الإيمان من قِبَل المصلين واقفين؛ وصلاة يقرأها القس ويرددها جميع المصلين راكعين. ثم أُحرقت الصلاة، وألقى القس عظة، وأنشد نشيدٌ لطول عمر الملك؛ ثم تلتها الوصايا العشر، والموسيقى، وحرق البخور والألعاب النارية. مُنعت التجارة يوم السبت، وأُغلقت المتاجر. وكان هناك رجال دين، يُختارون عن طريق امتحان تنافسي، ويخضعون لموافقة... كان تيان وونغ، أو الزعيم الديني الأعلى للحركة، يُعيّن قسيسٌ لكل خمس وعشرين عائلة، وتُخصّص له

كنيسة، أو قاعة سماوية، في مبنى عام. وكان لكل خمس وعشرين أبرشية رئيسٌ يزورها بالتناوب كل يوم سبت. وكان الزعيم وونغ يُخاطب جميع الناس مرةً في الشهر.

يصف كاتب هذا العمل حضوره صلاة الصباح في نان كينغ، في القاعة السماوية بمنزل تشونغ وانغ. وكانت هذه الصلاة تُقام عند شروق الشمس كل صباح، حيث يجلس الرجال والنساء على جانبي القاعة. يقول: "كثيراً ما كنتُ، وأنا راكعٌ وسط جماعةٍ تبدو متدينة، أنظر إلى وجوههم المشرقة التي أضاءتها شمس الصباح الباكر، أتساءل لماذا لم يحلّ مكاني أي مبشر بريطاني، ولماذا فضّل الأوروبيون عموماً ذبح التي-بينغ على قبولهم كإخوةٍ في المسيح. وعندما أتذكر،" يضيف، "اللطف الثابت والشامل الذي لطالما وجدته بين التي-بينغ، حتى عندما كان أعزّ أقاربهم يُذبحون على يد أبناء وطني، أو يُسلّمون إلى المانشو ليُعذّبوا حتى الموت، يبدو صبرهم العظيم كحلم. كانت مشاعرهم الطيبة والودودة تُثير استياء البعض. بالنسبة لمن ذاقوا كراهية الصينيين المعتادة للأجانب، كانت ودّية التي-بينغ المُدهشة لافتةً للنظر." لقد رحّبوا بالأوروبيين كـ"إخوةٍ من وراء البحار"، واعتبروهم رفقاء عبادة "يسوع."

...مع أن قبيلة تي-بينغ لم تتخلَّ فورًا عن جميع العادات الوثنية، ولم يكن متوقعًا منها ذلك، إلا أنها اتخذت خطواتٍ ملحوظة في الاتجاه الصحيح. فقد تمتعت نساؤهم بمكانةٍ أعلى بكثير من مكانة نسائهم بين الصينيين الآخرين؛ وألغوا عادة شد أقدامهن؛ وتمتعت المرأة المتزوجة بحقوق، ولم يكن بالإمكان تطليقها كيفما شاءت، أو بيعها، كما كان الحال في عهد المانشو. وأُنشئت مؤسساتٌ كبيرة للنساء غير المتزوجات. وأُلغيت العبودية تمامًا، وجُعل بيع الإنسان جريمةً يُعاقب عليها بالإعدام. وحظروا استخدام الأفيون حظرًا قاطعًا؛ ولعل هذه كانت جريمتهم الكبرى في نظر الإنجليز. وعُوقبت الدعارة بالإعدام، وكانت مجهولةً في مدنهم. كما أُلغيت عبادة الأصنام تمامًا. وكان تعاملهم مع الشعب الخاضع لهم رحيمًا؛ فقد حموا أسراهم، الذين كان الإمبرياليون يذبحونهم باستمرار. وبدلًا من أن تحافظ القوات البريطانية على حيادها، ساعدت الإمبرياليين في قمع الانتفاضة بمثل هذه الطرق. افترضت الطرادات البريطانية أن سفن تي-بينغ الشراعية كانت قراصنة، لأنها استولت على سفن صينية. أغرقت

السفينة البريطانية "بيترن" وسفينة بخارية أخرى جميع سفن الأسطول المتمرد باستثناء سفينتين، وسلمتا طاقم إحداهما التي استولتا عليها ليُعدموا. هذا وصف لحادثة مماثلة وقعت في ميناء شيبو: "دُمّرت السفن الشراعية، وأُعدم طاقمها رميًا بالرصاص، وأُغرقوا، وطُوردوا حتى بلغ عدد القتلى نحو ألف شخص؛ وساعد رجال "بيترن" الصينيين على الشاطئ لإتمام المذبحة الجماعية<sup>26</sup>".

ويرى هذا الكاتب الإنجليزي المُطّلع أن ثورة تي-بينغ كانت ستنجح لولا التدخل البريطاني؛ وأن سلالة التتار كانت ستُطرد، وأن الصينيين كانوا سيستعيدون استقلالهم، وأن المسيحية كانت ستنتشر في جميع أنحاء الإمبراطورية. وفي نهاية كتابه، يقدم جدولاً يضم ثلاثة وأربعين معركة ومذبحة شارك فيها الجنود والبحرية البريطانية، والتي قُتل فيها حوالي أربعمائة ألف من قبيلة تي-بينغ، ويقدر أن أكثر من مليوني شخص آخرين ماتوا جوعاً في عامي 1863 و1864، في المجاعة التي سببتها عمليات القوات الإنجليزية والفرنسية والصينية المتحالفة، عندما طُردت قبيلة تي-بينغ من أراضيها. في ضوء هذه الحقائق، يحق لكاتب إنجليزي أن يقول: "لم تكن سياسة الحكومة البريطانية كارثية على مصالح العالم فحسب، بل كانت مدمرة لمصالحه العليا. فتجاهل القانون الدولي وقانون المعاهدات في أوروبا، وأعمال القرصنة والنهب في آسيا، ونظام واسع من الظلم والعنف، كلها سماتٌ طبعت تعاملات الحكومة البريطانية مع الشعوب الأضعف في العالم لسنوات طويلة<sup>27</sup>".

ويشهد إنجليز آخرون، إلى جانب "لين لي" والسيد ميدوز، على الطابع المسيحي لهذه الحركة العظيمة في الصين. يقول الكابتن فيشبورن، واصفًا زيارته على متن سفينة إتش إم إس هيرميس إلى نانكينغ: "كان واضحًا لأي مراقب عادي أنهم كانوا عمليًا عرقًا مختلفًا." كانت لديهم الكتب المقدسة، وبدا له الكثير منهم مسيحيين ملتزمين، جادين ومتدينين، يؤمنون بعناية إلهية خاصة، ويعتقدون أن محنهم أُرسلت لتطهيرهم. قال أحدهم: "يتهموننا بالسحر. السحر الوحيد الذي نستخدمه هو الصلاة إلى الله." يقول الكابتن فيشبورن إن الرجل الذي قال هذا

"كان رجلاً نحيلاً ذا بنية ضعيفة، لكنه نطق بكلمات تنم عن ثقة شجاعة بالله، وكان بإمكانه أن ينطق بكلمات بطل. لقد أثار هو وغيره من أمثاله إعجاب الكثيرين".

عقول أتباعهم بشجاعتهم وأخلاقهم.

وقد أدلى أسقف فيكتوريا الإنجليزي بالشهادة نفسها مرارًا وتكرارًا. يقول الدكتور ميدهرست عن أحد كتب جماعة تي-بينغ: "ليس فيه كلمة واحدة لا يمكن لمبشر مسيحي أن يتبناها وينشرها كمنشور لنفع الصينيين."

ويصف الدكتور ميدهرست أيضًا مشهدًا حدث في شنغهاي، حيث كان يعظ في كنيسة جمعية لندن التبشيرية، عن حماقة عبادة الأصنام وواجب عبادة الإله الواحد الحق. فقام رجل في وسط الجماعة وقال: "هذا صحيح! هذا صحيح! يجب أن تهلك الأصنام. أنا من جماعة تي-بينغ؛ فنحن جميعًا نعبد إلهًا واحدًا ونؤمن بيسوع، وندمر الأصنام في كل مكان. قبل عامين، عندما بدأنا، لم نكن سوى ثلاثة آلاف؛ لقد سرنا الآن عبر الإمبراطورية، لأن الله كان إلى جانبنا." ثم حث الناس على التخلي عن عبادة الأصنام والإيمان بيسوع، وقال: "نحن سعداء في ديننا، وننظر إلى يوم موتنا على أنه أسعد لحظة في الحياة." عندما يموت أحدنا، لا نبكي، بل نهنئ بعضنا بعضًا لأنه انتقل إلى نعيم العالم السماوي.

أظهرت مهمة السيد بورلينغيم رغبة صادقة لدى الرجال الحكماء الذين حكموا الصين آنذاك، ولا سيما الأمير كونغ، في إقامة علاقات مع الحضارة الحديثة والفكر المعاصر. من الوثائق الرسمية لهذه المهمة، <sup>28</sup>يتضح أن السيد بورلينغيم كان مخولًا "بإدارة جميع الأعمال مع الدول الموقعة على المعاهدات التي تربطها مصالح مشتركة مع الصين" (رسالة الأمير كونغ، 31 ديسمبر 1867). وقد صرحت الحكومة الصينية صراحةً بأن هذه الخطوة تهدف إلى تبني عادات العلاقات الدبلوماسية الغربية، وأن الإمبراطورية الصينية بذلك تسعى إلى التوافق مع القانون الدولي، كما هو متعارف عليه بين الدول الأوروبية. ولذلك، اعتمدت "قانون ويتون الدولي" كمرجع أساسي في وزارة الخارجية، وقامت بترجمته بدقة إلى اللغة

الصينية لاستخدام موظفيها. ويقول السيد بورلينغيم إن هذه الخطوة كانت نتيجةً لـ... أشار بورلينغيم إلى "السياسة التعاونية" التي تبناها ممثلو الدول الموقعة على المعاهدة في الصين، والتي اتفقوا بموجبها على العمل معًا في جميع المسائل المهمة، وعدم التنازل عن أي أراضٍ، وعدم تهديد استقلال الإمبراطورية. واتفقوا على "تركها حرة تمامًا في تطوير نفسها وفقًا لنمط حضارتها، وعدم التدخل في شؤونها الداخلية، وجعل مياهها محايدة، وأراضيها آمنة" (خطاب بورلينغيم في سان فرانسيسكو). لا شك أنه إذا امتنعت الدول المعروفة باسم "الدول الموقعة على المعاهدة"، وهي الولايات المتحدة وبلجيكا والدنمارك وفرنسا وبريطانيا العظمى وهولندا وإيطاليا وشمال ألمانيا وروسيا وإسبانيا والسويد، عن العدوان والتدخل في الصين، واحترمت استقلالها، فإن هذه الإمبراطورية العظيمة ستخرج من عزلتها التي دامت خمسين قرنًا، وتنضم إلى الكومنولث الدولي.

وتتضمن المعاهدة الموقعة بين الولايات المتحدة والصين في 28 يوليو/تموز 1868 بنودًا تنص على حياد المياه الصينية، وحرية العبادة لمواطني الولايات المتحدة في الصين، و... الصينيون في الولايات المتحدة؛ للسماح بالهجرة الطوعية، وحظر تجارة العمالة القسرية؛ لحرية السفر بين الصين والولايات المتحدة لمواطني كلا البلدين؛ ولحرية إنشاء المدارس والالتحاق بها في كلا البلدين.

نضيف إلى هذا الفصل ملاحظةً تتضمن سردًا شيقًا، من كتاب هوي "المسيحية في الصين"، عن حجر منقوش، يثبت وجود كنائس مسيحية في الصين في القرن السابع. كانت هذه الكنائس ثمرة جهود المبشرين النسطوريين، الذين كانوا مسيحيي البروتستانت في عصرهم. ويُعد نجاحهم في الصين دليلًا آخر على أن المسيحية التي يُراد الترحيب بها هناك يجب أن تُقدم بصورة مفهومة وعقلانية.